جعفر حامد البشير

السودان في القرية والمدينة

ذكريات وشخصيات وتاريخ



السودان في القرية والمدينة
ذكريات وشخصيات وتاريخ

السودان في القرية والمدينة
ذكريات وشخصيات وتاريخ

جعفر حامد البشير



دار عزة للنشر والتوزيع
الخرطوم - السودان

الـكـتــاب : السودان فى القرية والمدينة

المؤلــــف : جعفر حامد البشير

رقـم الإيـداع : ٣٥٧٠ / ٢٠٠٥

تـاريـخ الـنـشـر : ٢٠٠٥

ردمـــك : ٣٢٠٠ - ٥٤ - ٢ ٩٩٩٤

الـنـاشـر : دار عـزة لـلـنـشـر والـتـوزيـع

الإدارة : شارع الجامعة - الخرطوم - جنوب وزارة الصحة .

ت : ٧٨٧٢٠٠ فاكس : ٧٩٧٠٨٤ (١١ - ٢٤٩ +)

الـتـوزيـع : دارعزة للنشر والتوزيع ت : ٧٨٧٢٠١

السودان - الخرطوم . ص.ب : ١٢٩٠٩

بريد إلكترونى **azza ph @ yahoo.com**

مقدمة

إنها رحلة طويلة شاقة يضمها هذا الكتاب علي صغر حجمه، إنه يقدم وصفاً تاريخياً اجتماعياً للحياة كما رآها صاحبنا في القرية والمدينة بدءاً (بقندتو) ونهاية بالعاصمة المثلثة مع خاصية لأم درمان مروراً بشندي التي كانوا يسمونها في الثلاثينيات وما قبلها (البندر). ولكن صاحب الكتاب دهش وكاد يذهل عندما رأي البندر الكبير في العاصمة السودانية ! فقد رأي الكهرباء وأضواءها لأول مرة ورأي الترام أو (الترماج) وأخذ ينهل من القراءة في الصحف والمجلات والكتب بنهم شديد وسمع بمؤتمر الخريجين ورأي علي بك الجارم يزور السودان كشخصية كبيرة من رجال التعليم والأدب والشعر عام ١٩٣٦ وشهد العقاد وهو يزور السودان أيضاً سنة ١٩٤٢ ولزيارته للسودان قصة طريفة وأخذ يسمع ويقرأ عن الحرب العالمية الثانية وسمع يونس بحري يتوعد العقاد من راديو برلين وهو يقول: ويل للكاتب المأجور عباس العقاد. وكان معجباً أشد الإعجاب بالحركة الوطنية بقيادة مؤتمر الخريجين ورأي زعماء الخريجين في الليالي الأدبية والسياسية واهتم بحضور الأمسيات الأدبية والندوات التي أقامها الخريجون للرجلين الكبيرين الجارم والعقاد وكتب عن مدرسة البريد والبرق التي التحق بها عقب نهاية تعليمه الأوسط وقد حالت ظروفه العائلية عن الالتحاق بكلية غوردون إنه شريط طويل من الأزمات والمفاجآت التي واجهها بكل شجاعة وأصر علي أن يعوض عن حرمانه من التعليم العالي الأكاديمي بالتعليم الذاتي بصورة كادت ترضي طموحه. وفي الكتاب انتقالات متعددة سيقف عليها القارئ بتفاصيلها وقد لايخلو من الطرافة

والاستغراب الكثير منها هنا أو هناك .. وأظن أن القارئ سيندهش حقاً وهو يقف علي اهتمام الشبان الصغار بالحياة الثقافية والوطنية والسياسية حتي العالمية مما لم يهتم به اليوم حتي خريجي الجامعات فلماذا وكيف حدثت هذه المفارقات؟

لقد توقف صاحب الكتاب عن تسجيل هذه الذكريات عند مستهل الخمسينيات وهو في الثمانينيات ولديه مذكرات عن الحركة العمالية السودانية الخاصة بتلك الفترة ولكنه لم يوفق إلي إعدادها بعد ولديه مذكرات عن الصحافة السودانية بعد أن التحق بها في منتصف الخمسينيات وبدأ منذ قريب في نشر البعض منها في صحفنا السودانية ولم تكتمل بعد وكما قيل فإن مالا يدرك كله لايترك جله.

أما الجزء الأول من هذه الذكريات فقد صدر منذ أعوام.

باسم : (السودان في القرية والمدينة – مملكة الجعليين الكبري) في ثلاث طبعات الأولي عام ١٩٩٥ والثانية عام ١٩٩٧ والثالثة عام ٢٠٠٤م

ونكتفي بهذا التنوية المختصر وبالله كل عون وتوفيق.

الحلقة الأولي

الصبي الريفي الصغير في رحلة التعليم الأولي بين القرية والمدينه والبندر الكبير؛ حينما تحدث إعجاباً بما شاهد قيل له ستري الكثير أيها القروي الصغير.

عزيزي القارئ

قال صاحبنا: سأتحدث إليك في مثل هذا اليوم من كل أسبوع حديثاً قد لايكون طويلاً وقد لايكون قصيراً ولكن لن يشوبه الإملال - إن شاء الله - حديثاً يبدأ بما رأيت منذ خمسين عاماً مضت بوجه التقريب وأنا استعرض التغير والتطور وأقارن فما أدري أأحزن أم أضحك أم أسخر؟ وبين القراء من تعيد له هذه الذكريات أطيافاً حبيبة - مقارنة بالتي عاشها هو بحلوها ومرها ومنهم من لم يقرأ ولم يسمع بمثيل لها لاختلاف الأزمنة والأمكنه. وأني لأدعو الكتاب جميعاً أن يسجلوا تجاربهم والمواقف التي مروا عليها ففيها علم وفير وفيها خبره وفيها جهاد وفيها ثقافة! فهي اليوم مقالات في الصحف وربما تكون غداً كتاباً بين الكتب تفيد منه الأجيال السابقة واللاحقة ولنا أسوة في هذا المجال في شيوخ لنا أجلاء منذ قديم الزمان أذكر منهم ابن قتيبة والجاحظ وأبا العلاء المعري وأبا حيان التوحيدي وغيرهم وغيرهم حتي أصل إلي طه حسين في كتابه (الأيام).

إنها معالجات تربط بين الماضي والحاضر ولاتستغرق في التفكير ولا في تعمق النظريات أو الفلسفات وإنما تكتفي بتصوير المشاهد كما هي بكل بساطتها وهذا ما يكسب قراءها فيما أظن المتعة وحلاوة التذوق وقال: وآمل أن أحقق لك قارئي العزيز ما أريد وبالصورة التي ترضاها فإن لم أوفق فلك العتبي حتي ترضي وباسم الله نبدأ.

بنهاية عام ١٩٣٤م كان صاحبنا يعد نفسه لمغادرة مدينة شندي للالتحاق بالمدرسة الوسطي بعد اجتياز المرحلة الأولية التي كان اسمها(الكتاب)كما كانت (المدرسة الوسطي) تسمي الابتدائية علي خلاف ما هو متعارف عليه فيما بعد.

ولكن وقبل ان يغادر صاحبنا شندي فهناك شئ متصل بتاريخها الوطني الحديث فات عليه أن يسجله في كتابه:(مملكة الجعليين الكبري) لذا فلابد من التعرض له الآن وهو يغادر المدينة التاريخية فهي بالرغم من أنها لم تكن عاصمة في عهد الحكم الثنائي لكنها كانت سابقة كعهدها لأخذ موقفها الوطني فهي قد احتجت لإجلاء الاستعمار البريطاني للأخوة المصريين من السودان عقب اغتيال السيرلي استاك في مصر والذي جعله الاستعمار ذريعة لاتخاذ ذلك القرار الظالم والذي كان يقدم مثالاً حياً للذرائع التي يبني عليها الاستعماريون عادة أحكامهم الجائرة كان ذلك في عام ١٩٢٤م وقد تلاه بعد مضي ربع القرن الوفاء بوعد بلفور في فلسطين والتمكين للإسرائيليين من احتلالها عام ١٩٤٨م والتوسع فيه في عام ١٩٦٧م وهو عام النكسة أو الهزيمة وبالمثل عقاب العراق بعد إجلائه عن الكويت بالحصار الاقتصادي وتأليب العناصر العراقية ذات التوجهات الدينية المتباينة لتقسيمه وفرض الحصار الجوي عليه منذ عام ١٩٩١م وبالمثل المؤامرات الاستعمارية في شرق إفريقيا وفي مناطق البلقان وتتزعم الولايات المتحدة سراً وجهراً هذه التحركات ولكن باسم الأمم المتحدة المغلوبة علي أمرها! خاصة بعد أن جني رجال امثال غور بتشوف ويلسن علي وحدة الاتحاد السوفيتي فلم يحرموا شعبهم وحدة عزته وكرامته وإنما حرموا العالم كله من ركيزة التوازن العالمية التي كان لها أثرها وخطرها حتي نهاية الثمانينيات من القرن العشرين فعادوا يطلبون مساعدات الغرب الاقتصادية مثلهم مثل دول العالم الثالث المنكوب!!

عود إلي شندي

قال صاحبنا: ونعود إلي شندي ومشاركاتها الوطنية والوحدوية في الاحتجاج علي مؤامرة ١٩٢٤ التي فجرت الثورة بزعامة الشيخ بابكر الطيب رئيس لجنة اللواء الأبيض بالمدينة وكان من أعضاء تلك اللجنة حاج جلاب بشير ومحمد إدريس عبد الرحيم ومن شخصيات المتمة المقيمين بشندي عبد القادر جمال الدين.

وكان أحمد الشيخ والد الشفيع ومنصور أحمد الشيخ وإخوانهما يأوي المتظاهرين عندما يطاردهم رجال الشرطة في منزله وقد آمره مفتش المركز باخراجهم فرفض وبأضافة رواية ثانية إلي تلك الأسماء علي جاد الله وعبد الكريم السيد كما ورد فيها أن أحمد الشيخ لم يكن دوره إيواء المتظاهرين فحسب وإنما كان عضواً فاعلاً في لجنة اللواء الأبيض بشندي.

وذكر مصدر هذه الرواية لصاحبنا أن الشرطة قد اعتقلت رئيس اللجنة الطيب بابكر فتجمع أهل شندي وبعثوا ببرقية لمفتش المركز البريطاني يطالبون فيها بإطلاق سراح الطيب بابكر خلال ٢٤ ساعة والا فأن شندي ستخرج عن بكرة أبيها في مظاهرة غير سلمية لإطلاق سراحه محملة إياه أي المفتش مسئولية الخسائر فأطلق المفتش سراحه مؤقتاً تحت الضغط الشعبي المتفاقم!

وتجدر الإشارة إلي أن الشيخ الطيب بابكر هو والد التجاني الطيب وأحمد الطيب وإخوانهما وقد ناضل كلاهما في الحركة الوطنية يميناً ويساراً وكذلك فعل أبناء أحمد الشيخ منصور والشفيع والأخير أعدم في عهد نميري كما هو معروف وكما كان الآباء في شندي كان الأبناء وكذلك الأمر كان يحدث ربما في

كل مدن السودان وكما قيل (ابن الوز عوام) ولاشك أن الرصيد راجع في أصله إلي شندي المناضلة منذ أيام نمر وإسماعيل الباشا بن الباشا محمد علي الكبير!

القرية والبندر

قال صاحبنا: عندما خرجت من القرية كان البندر الذي أذهلني هو شندي وعندما انتقلت إلي العاصمة السودانية المثلثة شهدت العجب العجاب! في البندر الكبير واستطرد قائلاً إنه كان حزيناً من جهة كما كان فرحاً منشرح الصدر من جهة أخري لأنه سينتقل إلي مرحلة دراسية أعلي وسيستبدل بندراً أصغر بآخر أكبر كثيراً.

أم درمان أفضل

كان أبواه قلقين علي مستقبل دراسته وإقامته فبربر بعيدة وعطبرة فيها مدرسة وسطي نصفية ولكن أم درمان أفضل وأنسب وفيها خاله محمد أفندي البشير (تنقور) ضابط الشرطة بالمدينة ويمكن أن يقيم معه في منزله وعلي الفور أعد والده خطاباً لذلك الخال الكريم وكتبت مدرسته بشندي رسالة إلي ناظر مدرسة أمدرمان الأميريه الوسطي ليتاح له الجلوس لامتحان القبول ثم أعدت له (شنطة) حديديه ثقيلة الوزن بالرغم من صغر حجمها ليحمل فيها ملابسه ولاشئ غيرها!!

إن الفرح كان يطغي علي وجدانه ولكنه يتأثر وربما يحزن لفترات قد تطول وقد تقصر كلما خطر له فراق والديه اللذين هو وحيدهما إلي بلد بعيد ولفترة طويلة تستغرق بضعة أشهر قبل حلول العطلة المدرسية السنوية.

خرج نهار يوم من أيام عام ١٩٣٤م إلي محطة السكة الحديد وترك والدته باكية وصحبه أبوه إلي المحطة ثم ودعه عند قيام القطار المتجه نحو الخرطوم

وكان يبدو عليه التأثر رغم تجلده. إن منزل (السواري) الصغير الذي كان يأوي ثلاثة أشخاص أصبح بعد سفره يأوي شخصين فقط وذلك قبل أن يأتي من عالم الأجنة أخوه (صافي الدين) فيؤنس وحشتهما ولو إلي حين رحمه الله.

صفّر القطار ثم تحرك وألقي صاحبنا نظرة وداع علي مدرسته التي سميت فيما بعد (بالشمالية) وها هي أحياء شندي تغيب عن ناظريه تدريجياً.. اختفت حالاً حلة المحطة من الجهة الشرقية لقضيب السكة الحديد كما بدأت تختفي الأحياء الواقعة علي الجهة الغربية: السوق، المركز، شندي فوق والقطار يزيد من سرعته ثم تتابعت محطات السكة الحديد: القوز، وبانقا، الميجة، جبل جاري، كما كانت مكتوبة هكذا آنذاك ولكن نما إلي علم صاحبنا أن مولانا السيد علي الميرغني قد وجه إلي تصحيحها عندما نظر مرة في إحدي سفراته إلي الشمال أو الشرق فرأي من النافذة هذا الخطا أما الذين كتبوا اللافتة فهم العمال المصريون الذين مدوا الخط فأختلطت عليهم كلمة قرّي بكلمة جاري والمقصود بها النسبة لقرّي وجبلها الأشم وقد كانت قرّي فيما هو معلوم عاصمة مملكة العبدلاب التي نقلوها فيما بعد إلي الحلفلية فسميت حلفاية الملوك أي ملوك العَبدَلاب.

وأصل صاحبنا النظر من نافذة القطار والمحطات تتناقص واحدة بعد الأخري حتي وصل الجيلي ثم بدأ جولة أخري وقف بعدها القطار في محطة الخرطوم بحري وهنا نزل صاحبنا عند بعض أقاربه الذين سيأتي ذكرهم فيما بعد، كانت الشمس قد آذنت بالمغيب وبعد أن أخذ صاحبنا قسطاً من الراحة خرج من المنزل ليري شيئاً من مظهر المدينة كان أول شئ استرعي انتباهه أنوار الكهرباء بقوتها ووفرتها فتذكر الظلام في شندي وأسوأ منه ظلام القرية الهاجعة في المساء ثم كاد يذهله منظر الترام أو الترماج كما كان يقول بعضهم

ولم يكن يتخيل له هذه الصورة الجميلة عمودان مستطيلان إلي أعلي حتي يشتبكا بأسلاك عليا فتتولد منهما الطاقة الكهربائية الدافعة له بسرعة دون سرعة القطار ولكنها مناسبة ثم رأي بعض السيارات بين ذاهبة إلي الخرطوم أو آيبة إلي الخرطوم بحري لكنها كانت قليلة للغاية.

ثم عاد صاحبنا إلي منزل أقاربه بعد هذه النظرة الاستكشافية القصيرة عاد معجباً ومبهوراً بما شهد ومتحدثاً عن هذه الدنيا الجديدة التي بدأ يراها لأول مرة فضحك أقاربه وقال له أحدهم إنك ستري الكثير أيها القروي الصغير، وفي الصباح بدأ رحلته بالترام من بحري إلي الخرطوم ومن الخرطوم إلي أم درمان كما رسم ووضح وشرح له كل شئ ولكنه عندما رأي الترام يعلو جسر النيل الأزرق وأخذ ينظر إلي النيل تحته وصوت حركة الترام فوق أرضية الكوبري يحدث ضجة وهزة شديدتين يضطرب لهما الجسم كله وربما القلب أيضاً أخذ يتساءل بينه وبين نفسه: الا يجوز أن ينكسر جزء من هذا الكبري فيلقي الترام بالركاب جميعاً في قاع البحر؟ ولكنه سرعان ما عاد إلي رشده وأخذ يسائل نفسه بصيغة أخري كم عمر هذا الترام؟ إنها عشرات الأعوام قبل أن تراه اليوم وتمتطي مقاعد عرباته ولم يسمع الناس بسقوط الترام حتي ولاسقوط القطار الذي هو أثقل منه بإضعاف وأضعاف فلماذا يحدث هذا الشئ الذي تخشاه الآن فقط، وما أن استقرت نفسه حتي رأي الترام يخرج من الكبري ويشق شارعاً من شوارع الخرطوم بين المنازل الجميلة التي كان يقيم بها الحكام البريطانيون وقد التفت حولها الحدائق الغناء والأزهار الملونة ذات الأشكال البهيجة ثم أنتقل إلي الترام الثاني المتجه إلي أم درمان ورأي مقرن النيلين في أبهي روعته ولم يزعجه كوبري أم درمان بعد تجربة كبري النيل

الأزرق وفجـأة يجد مـدخل أم درمـان بائسـاً: خـور أبو عنجة الموردة ومـا تلاها حـتي مـركـز المدينة الذي بدأ في صـورة أفـضل بعض الشئ وذلك بخـلاف الخرطوم الخضراء النضبيرة والنظيفة والتي علم فيما بعد أنها فتنت حـتي الأنجليز أنفسهم .. أيام ويالها من أيام..

الحلقة الثانية

لجنة القبول للتعليم الأوسط كان يرأسها مفتش بريطاني من كبار رجال التعليم حضرة الناظر حسن الظاهر كان رجلاً أسطورة في النظام والانضباط

استقر الطالب الصغير في منزل خاله ضابط بوليس المدينة الذي رحب به وقرأ الخطاب الذي حمله إليه من والده بشندي وقال له: إن شاء الله غداً نوصلك إلي المدرسة للجلوس للامتحان، شد حيلك ولاتخف.

وعلم فيما بعد أن ذلك السور العظيم الشاهق ذا الحجارة الضخمة الخشنة قد بني في عهد المهدية وأن سجن أم درمان الكبير بداخله وكذلك مباني رجال الشرطة أو البوليس كما كانوا يسمونهم وبالمثل كان منزل خاله المواجه لمكاتب الشرطة في جزء منفصل عنها ولكنه مجاور للسجن. كما علم أن ذلك المنزل كان قد بني لشيخ الدين بن الخليفة عبد الله التعايشي فهو منزل أمير شاب من أمراء المهدية في عهد الخليفة عبد الله بل هو منزل أمير أثير عند أبيه، وهومنزل صغير بمقاييس هذا العصر ولكنه بالنسبة للعصر الذي بني فيه يعتبر كبيراً لأن به ثلاث غرف وبرندتان ومصطبة حوش وسلالم يصعد بها أهل المنزل إلي السطوح حينما يشاءون هذا عدا المرافق الصغيرة والحمامات..

والآن وبعد مرور خمسين عاماً علي وجه التقريب - تذكر وهو يكتب عن شيخ الدين ورايته «الملازمين» وموقفه في معركة كرري حسبما وردت في كتب التاريخ تذكر أنه هو الرجل الذي كان يسكن في منزله بأم درمان لمدي عامين اثنين فسبحان مغير الأحوال!!

نظرات استكشافية

قضي صاحبنا سحابة ذلك اليوم وهو يخرج من المنزل فترة بعد أخري ثم يخرج من السور الكبير الشاهق ليشهد حركة المدينة من طرف شرقي ناء عن السوق وعن المركز وعن الأحياء التي عرف أسماءها فيما بعد: أبوروف، بيت المال، من جهة والعباسية من جهة أخري. ولكنه شهد النيل قريباً منه إلي حد ما وكذلك قبة الإمام المهدي من الجهة الغربية بالنسبة للموقع الذي هو فيه ويجاور قبة المهدي بيت الخليفة عبد الله.

وبالرغم من أن المنطقة التي نزل بها كانت هادئة تماماً إلا أن الحركة حولها كانت أضعاف ما كان يشهده في شندي وسأل عن مدرسة أم درمان الاميرية الوسطي كما كانت تسمي فوصفت له فرأي أنها ليست بعيدة عن المنزل وفكر لأول مرة في الامتحان صباح الغد وهل سيكون صعباً؟ وخشي أن يخونه الحظ فلا يأتي اسمه بين الناجحين الذين يتحتم قبولهم بالرغم من الثقة العظيمة التي كان يشعر بها لقد أزعجته هذه الخواطر أو الوساوس في المساء فلم ينم إلا في جزء متأخر من الليل. كان مثل هذا الإحساس جديداً عليه إذ لم يعهده في نفسه من قبل كما وضح في كتابه. «مملكة الجعليين الكبري» كان يحرز دائماً قمة التفوق في مدارس «السواري» والشيخ خلف الله والمدرسة الأولية فتشاءم بهذه الظاهرة الطارئة التي لم يعرف لها سبباً وخشي أن يكون وراءها حقيقة أنه لن يقبل ومن ثم فإنه سيعود إلي شندي خاسراً فاشلاً ولكنه استعاذ بالله وقرأ بعض الآيات القرآنية وتوكل علي الله ثم استسلم لنوم عميق.

استهلال طيب

ذهب صاحبنا في الصباح الباكر إلي المدرسة الأميرية الوسطي وتأكد من

إثبات اسمه بين الممتحنين «بفتح الحاء» وأدي التلاميذ الامتحان قبيل منتصف النهار وطلب منهم الحضور في يوم تال لمعرفة المقبولين منهم فنودي علي اسمه بين المقبولين وكان يطلب ممن حالفه الحظ أن يدخل مكتباً معيناً لمقابلة، مفتش المعارف البريطاني «تصور» وناظر المدرسة السوداني ليعرضا عليه شرط القبول والمصاريف الحكومية فإن أبدي الاستعداد لدفعها سجل اسمه.

بوغت صاحبنا بنظرات المفتش الفاحصة في وجهه ثم سأله: هل يستطيع أبوك أن يدفع للمدرسة مبلغ اثنين جنيه ونصف في السنة؟

فوجئ صاحبنا بحكاية المصاريف المدرسية هذه وهو أمر لم يتطرق إليه هو ووالده فأجاب:

إن والدي جندي في قوة دفاع السودان بالسواري ولايستطيع دفع مثل هذه المصروفات.

نظر المفتش البريطاني إلي الناظر الاستاذ الكبير حسن الظاهر فابتسم الأخير وخاطب صاحبنا: أنت ولد شاطر وترتيبك في هذا الامتحان الكبير متقدم ونجحت بمجموع عال وأتيت من مدينة بعيدة ولأن دخل والدك بسيط فجناب المفتش قرر عليك مبلغ اثنين جنيه ونصف وتدفع علي ثمانية أشهر بواقع ثلاثين قرشاً في الشهر ما عدا الشهر الأول فستدفع فيه أربعين قرشاً وهذه فرصة ثمينة يجب ألا تضيع منك فتندم عليها، وخسارة أن يفقد ولد شاطر مثلك هذه الفرصة فما رأيك؟

لقد طمأنته كلمات حضرة الناظر منذ البداية واعتبرها استهلالاً طيباً وربما مبشراً حينما قال له إنه كان عالي المجموع كما كان ترتيبه متقدماً وأن المبلغ الضخم بالنسبة لذلك الزمن سيقسط علي ثمانية أشهر وهي أشهر الدراسة

السنوية وبقية أشهر السنة ستستغرق منها العطلة حوالي الثلاثة أشهر علي الأقل.

إذن يجب أن ينتهز الفرصة كما قال له حضرة الناظر فيعلن القبول وتم ذلك فعلاً ولكنه كان يخشي أن يشق المبلغ علي والده فكتب إليه رسالة عاجلة وسرعان ما وصله الرد بالتهنئة وتهوين الأمر علي نفسه وصار يصل اليه بعنوان المدرسة (كبون بوستة) شهري قيمته ستون قرشاً نصفها للمدرسة والنصف الآخر مصاريف جيب لشخصه فكان سعيداً للغاية بهذه النتيجة السارة..

ومن ناحية أخري فقد سر خاله محمد أفندي البشير للنتيجة وكذلك أقاربه الآخرون ومنهم خال آخر هو حامد الفكي حامد وعندما أعلن لهم تخوفه من أن تشق المصاريف علي أبيه ضحكوا وقالو له: أطمئن فإن لم يستطع أبوك دفعها فسندفعها لك نحن هنا وكان بين أولئك الأقارب:

أحمد دفع الله والطاهر وحسن عباس البشير ومحمود السيد وكانوا من رجال الشرطة! رحمهم الله جميعاً.

نحو الثقة والاطمئنان

كان لتلك الكلمات الطيبة المشجعة أثر كبير في نفسه وكذلك قبلها كلمات حضرة الناظر التي سبقت الإشارة إليها فهي قد أزالت الهواجس التي كان يعاني منها في الليلة التي سبقت صبيحة يوم الامتحان.

استهل صاحبنا دراسته الوسطي وهو طيب النفس منشرح الصدر يحس بالثقة في كل خطوة يخطوها ومنذ اليوم الأول أخذ يتفحص مدرسته الجديدة الضخمة أنها من طابقين: أعلي وأرضي وبها ثماني حجرات في الطابق الأعلي

في حين أنها لا تزيد علي أربعة فصول كان مندهشاً حتي قيل له في هذا الجانب أربعة فصول من الأول إلي الرابع وتسمي «أ» وفي الجانب الآخر أربعة مثلها وتسمي «ب» وهؤلاء قد اختيروا من بين المئات التي تقدمت للامتحان من المدارس الأولية بالعاصمة لأن الأميرية الوسطي كانت مرغوباً فيها لشهرتها ونجاح طلبتها في الامتحان لدخول كلية غوردون لأسباب سنذكرها بعد قليل.

لقد بهرت هذه المدرسة ذات المباني الضخمة صاحبنا يومها وعهده بالمدارس الأولية وحتي الوسطي التي شهدها بالعاصمة فيما بعد أنها تتكون من أربعة فصول أو أربع حجرات فقط عدا مكاتب الاساتذة والمكتبة إن وجدت ثم أنه أعجب بالساحة الكبيرة الحافلة بالأشجار والأزهار التي عكف (جادين) علي ريها من الصباح إلي المساء وحينما يخرج حضرة الناظر فلم يجده واقفاً يسقي الحديقة الكبيرة بخراطيش المياه علي ندرتها في ذلك الزمان في بلادنا والجادين إن لم يرد علي الناظر ويباشر عمله فالويل له وسيصيح الناظر مره اخري (جادين .. جادين) ولصوته القوي صدي في المدرسة تكاد ترتج له كلها!!

حسن الظاهر

أنه يستحق وقفات طويلة ذلكم الرجل الجبار هو الناظر حسن الظاهر رجل أقرب إلي القصر منه إلي الطول عريض الجسم ممتلؤه جهوري الصوت لونه أقرب إلي البياض شبيه بالأتراك أو الباشوات المصريين كما كنا نري صورهم في الصحف المصرية التي كانت ترد إلي السودان أسبوعياً أنه لايبقي في مكتبه الأريثما يعد عملاً إدارياً أو يستقبل زائراً أو يتحدث إلي التليفون أما فيما عدا ذلك فإن وقته موزع علي الفصول في الغرفات الثماني إن شاء دخل وشهد المدرس وهو يشرح الدرس وشهد الطلبة وهم يتتبعون الاستاذ وأن شاء مر علي

الفصول من الخارج تحت سقف البرندة المستطيلة أو وقف عند شباك الفصل يسمع ويري وهو لاينبس ببنت شفه كما يقولون.. أنه يتتبع فقط بسمع مرهف وعينين واسعتين تكادان تنفذان من خلف نظارته السميكة ثم ينزل من الطابق الأعلي الي الطابق الأسفل فيمر علي مكاتب المدرسين فالمكتبة ثم يتجه إلي الحديقة ليطمئن علي أن (جادين) واقف يباشر عمله كان حسن الظاهر يلبس البدلة الكاملة وربطة العنق ويسرح للوراء شعره الأشمط أي الخليط سواده بالبياض ويلبس حذاء من «الكاوتوشك» كما كانوا يسمونه حتي يمر بالفصول ولا أحد يسمع وقع أقدامه حتي ينصرف، لاسلام ولا كلام ولا أية حركة تنم عن صوت ولا ابتسامة.. هكذا هو حزم لا حدود له. صمت لا حدود له كل شئ في المدرسة يسير كعقارب الساعة بتوقيت دقيق وبنظام لا نبو فيه ولاتغيير وقد أحسسنا نحن التلاميذ الصغار بما يعتمل في نفوس أساتذتنا من حذر يكاد يكون خوفاً من التعرض إلي أي اشتباك مع حضرة الناظر فسري الخوف إلي نفوسنا الغضة فالتزمنا النظام والأنضباط حتي صرنا جميعاً ساعات دقيقة منتظمة لا غياب ولا تأخير ولا ضجة داخل الفصول ولكن الأسلوب الإداري الصارم الذي التزم به حضرة الناظر وألزم به الآخرين أساتذة وتلاميذاً ما زال تنقصه في هذا السرد بقايا

الحلقة الثالثة

علي بك الجارم وزيارته للسودان تفجّر تظاهرة أدبية وتخفي أخري سياسية!! الأساتذة المتدربون في مدرستنا برز منهم فيما بعد رئيس وزراء اكتوبر وكوكبة من نجوم المجتمع.

قلنا في الحلقة السابقة إن رجالاً أمثال المرحوم حسن الظاهر ناظر المدرسة الأميرية الوسطي بأمدرمان في النصف الثاني من ثلاثينيات القرن الماضي إنما هم نمط نادر وكذلك أمثالهم سواء في مجال التعليم أو الإدارة أو القضاء ينبغي أن يكتب عنهم علي الأقل بعض المميزات وبعض السلوكيات الممتازة تقديراً ووفاء لهم وحفزاً لمن تلاهم ليأخذوا بما أخذ به أولئك الرواد أنفسهم التزاماً بالواجب وإخلاصاً للوطن، ونواصل ما سبق أن تطرقنا إليه في الحلقة الماضية.

كان حضرة الناظر يحضر طابور الصباح الذي يدخل التلاميذ بعده إلي الفصول عدة مرات خلال الأسبوع، أما في يوم السبت وهو يوم التفتيش الأسبوعي كما كان التلاميذ يسمونه فإن حضور الناظر له كان حتمياً وأكيداً ففي هذا اليوم لابد من أن يطمئن حضرة الناظر إلي التزام جميع التلاميذ بالنظافة فبالإضافة إلي الجلاليب والعمائم النظيفة البيضاء لابد من التأكد من أن التلاميذ قد أعطوا جسامهم حقها بالاستحمام وإذا شك حضرة الناظر في أن تلميذاً ما بدا علي جسمه عدم النظافة أو الاتساخ أمر الأستاذ (ضابط) المدرسة الذي يشرف علي طابور الصباح أن يضغط بإصبعه علي صدره ويحركه فإذا عاد الأصبع وعليه أثر من الاتساخ فإن هذا التلميذ لم يلتزم بأوامر الاستحمام في الصباح الباكر وحظه أسود كما يقول الأخوة المصريون وفجأة ينادي علي (جادين) وهو يحمل الجلدة!.

ومن البنود الإضافية في طابور السبت الصباحي أن ترفع العمائم من الرؤوس لتري الحلاقة والمعروف أنها يجب أن تكون (مكنة نمرة ١) والشعر الطويل في أعلي الرأس ممنوع وكان يسمي (الكاريه)!.

المتابعة خارج المدرسة

ولازمة أخري من لوازم حسن الظاهر فهو في العصريات يركب حماره الأبيض العالي وعلي السرج فروة بيضاء فاخرة ذات وبر كثيف فيقوم بالمجاملات في الأفراح والمآتم ويلبي الدعوات في مختلف أحياء مدينة أم درمان ولكنه لاينسي أن يراقب الأولاد الذين يلعبون في الحارات وساحاتها العامة فإن لم يعجبه سلوكهم توقف ناظراً: إليهم ليري إن كان فيهم بعض تلاميذ مدرسته والويل لهم إن وجدوا من المحاسبة غداً في المدرسة!.

النشاط الثقافي

ولكن هل كانت الحركة في المدرسة تسير وفق ذلك النمط الصارم وحده؟ كلا فقد كانت هناك حركة ثقافية وأنشطة أدبية وفنية كان التلاميذ يمثلون روايات تاريخية عربية وإنجليزية بمساعدة أساتذتهم وأشرافهم وكانوا يحفظون بعض القصائد الشعرية ويتبارون أمام الأساتذة وبحضور الناظر في إنشادها خاصة وأنه كان يوليها اهتماماً ملحوظاً كما كان يقدم لبعض النابهين والواعدين جوائز رمزية.

تري ماذا كانت نتائج تلك الشدة التي تبلغ درجة العنف والتي يصحبها في الوقت نفسه تنمية المواهب والإبداع الثقافي والأدبي والفني؟ لقد كانت نتائجها تفوقاً عظيماً للمدرسة وسمعة ممتازة واعتبرت مدرسة نموذجية تبعث مصلحة

المعارف أنذاك بالضيوف الأجانب من إنجليز وأوروبين آخرين لزيارتها بعد زيارتهم لكلية غوردون ويخف الأستاذ حسن الظاهر لاستقبالهم بابتسامة لا تشهدها المدرسة أساتذة وتلاميذاً إلا في مثل تلك المناسبات ويشاهد وهو يتحدث إليهم في ثقة وندية وبلغة إنجليزية راقية حين يصحبهم إلي بعض فصول المدرسة.

هل تتكرر المعجزات؟

ولكن الآن وبعد مضي أكثر من خمس عقود من الزمان علي هذه الانطباعات التي لم تنل الأيام من بريقها ولمعانها يتساءل صاحبنا بينه وبين نفسه: هل تتكرر المعجزات؟.

ويتساءل مرة ثانية: ألسنا في حاجة إلي أمثال حسن الظاهر رحمه الله لنري العزم والحسم والنظام والعمل والجد والمسئولية والتفوق والنجاح حتي تمحي الفوضي وينتهي التسيب وتستقيم الأخلاق وتعود إلي المدرسة بل إلي كل دواوين الحكومة قدسيتها وحريتها؟.

قال صاحبنا: ليت المعجزات تتكرر.. بعد زفرة طويلة مزاجها الحسرة والألم!!.

الرواد الذين تدربوا أمامنا

قال صاحبنا ومن الطريف أن شباناً جدداً من المدرسين المتدربين تبعث بهم كلية غوردون لمدرستنا ومعهم أستاذهم ليلقوا الدرس علينا ومن خلفهم أستاذهم بالكلية يستمع مثلنا ويدون في أوراقه أحياناً بعض الملاحظات التي نحسب أنه سيناقشهم حولها بعد أن يرجعوا إلي الكلية.

قال وفي إحدي المرات كان أستاذهم هو البروفيسور مكي شبيكة وكان المتدربون أو كان من بينهم ممن عرفنا فيما بعد الأساتذة: السر الخليفة رئيس وزراء حكومة أكتوبر وبأن النقا الأمين، قال صاحبنا هو من أهلنا ومن قريتنا (قندتو – مركز شندي) وأصبح فيما بعد وزيراً في عهد نميري ، وعفّان والطيب شبيكة وكان من نجوم المجتمع العاصمي وقد تحول عفان في النهاية من التعليم إلي الصحافة وكان لصحيفته (الشباب) في المرحلة الأخيرة للاستعمار دوي عظيم وسنعود إليها في موضعها الزمني من هذه الذكريات.. فيالها من أيام!.

علي بك الجارم في السودان

لقد ألمحنا في الحلقات السابقة إلي أحداث ثورة ١٩٢٤م الذريعة التي بني عليها الإنجليز إجلاء الجيش المصري عن السودان وردود الفعل الغاضبة في العاصمة والأقاليم وأحداث مدينة شندي بصفة خاصة، ونضيف الآن أن النحاس باشا رئيس الوزراء المصري ورئيس حزب الوفد وقع مع الإنجليز معاهدة ١٩٣٦م التي قضت بعودة الجيش المصري بتمثيل نسبي إلي السودان كما قضت بالاتصال الثقافي والتعليمي بين البلدين وإن كان النحاس الغي تلك الاتفاقية في مرحلة تالية لأنها قدمت للمصريين ما هو دون طموحهم ويومها قال: وقعتها بالإمس من أجل مصر واليوم ألغيتها من أجل مصر، ولكن وقبل الغائها طلبت حكومة السودان من مصر إيفاد أحد كبار المسئولين التعليميين طراجعة مناهج التعليم الخاصة باللغة العربية في السودان وبعثت مصر بالاستاذ الكبير علي بك الجارم.. وبما أن الخريجين في السودان كانوا يشكلون في تلك الفترة قلعة فكرية مرموقة في الثقافة والأدب والوطنية ولهم اتصالاتهم

الثقافية الوثيقة بالأدباء والمفكرين في الوطن العربي وخاصة في مصر فإن اسم علي بك الجارم كان يعني بالنسبة لهم الكثير وليس رجل التربية والتعليم فحسب لهذا فإن زيارته للسودان في عام ١٩٣٦م بالرغم من أنها قامت علي أساس عمل مهني محدد إلا أن المجتمع العاصمي السوداني قد استغل الفرصة فحولها إلي تظاهرة أدبية تخفي وراءها تظاهرة أخري سياسية نفس فيها عن الاحتقان الذي بدأ منذ عام ١٩٢٤م وانتهي جزئياً بعد توقيع اتفاقية ١٩٣٦ أي لمدي ١٢ عاماً كاملة علي الأقل.

والجارم نفسه في مدرستنا

قلنا إن مدرستنا كانت تحفل دائماً باستقبال كبار الزوار القادمين من الخارج وإذا كانوا في الماضي من الإنجليز والأوربيين فإن زائرنا هذه المرة هو علي بك الجارم من مصر الشقيقة لذا فقد كان لزيارته اعتبار خاص. قال صاحبنا: ولا أنسي ذلك اليوم الذي أخطرنا فيه بالحضور إلي المدرسة يوم الجمعة بأمر من الناظر لتجري لنا فيه مسابقة شعرية ينظر فيها الاستاذ الكبير علي بك الجارم نفسه. قال وكنا جماعة عرفنا بين الطلبة بأننا نقرض الشعر واذكر أننا كنا في حرف (ب) أحمد عبد الله سامي (الدكتور فيما بعد) وأنا وآخرون لا أذكر اليوم أسماءهم أما في حرف (أ) فقد كان علي رأس المجموعة الشعرية بابكر أحمد موسي الأستاذ والشاعر الكبير فيما بعد رحمه الله وأظنه كان معه محمد المكاوي مصطفي الذي شغل المنصب الوزاري في عهد الرئيس الأسبق نميري وآخرون.

جئنا في الصباح الباكر وانتشرنا في حديقة المدرسة أو حديقة (جادين) الذي سبق أنْ ورد اسمه ووظيفته، ثم جاءنا من الأساتذة من يقول لنا:

موضوع القصيدة التي ستتسابقون فيها هو (شم النسيم) وكان ذلك العيد يقع في ذلك الأسبوع قال الأستاذ ابدأوا الكتابة وسأعود إليكم بعد ساعة كاملة وجاء بعدها فعلاً وحمل قصائدنا إلي علي الجارم الذي كان مع حضرة الناظر فجاءتنا النتيجة في كلمات معدودات.

الأستاذ الكبير علي بك الجارم يسلم عليكم جميعاً ويقول تهنئتي إلي بابكر أحمد موسي وتحيتي لمكاوي وسلامي إلي بعض الآخرين فضحكانا كثيراً.

التظاهرة الأدبية الرائعة

قال صاحبنا ولكن زيارة علي بك الجارم كما قلنا قد تخطت أهدافها الرسمية التعليمية بصورة عفوية وتحولت كما قلنا إلي تظاهرة أدبية متميزة ونادرة الحدوث، وكانت كما سبق أن قلنا تخفي وراءها دون قصد أو تحضير أو إعداد مسبق تظاهرة سياسية ومن غرائب الصدف أنها حدثت في أسبوع احتفلت فيه مصر بعيد جلوس الملك فاروق الأول وبما أن الشاعر الكبير كان وقتها في السودان وأن مؤسسة الري المصري والجالية المصرية - قبل إنشاء النظام الدبلوماسي بين البلدين والذي تم بعد إعلان الاستقلال ١٩٥٦م احتفلتا بعيد صاحب الجلالة واحتفل الجارم بقصيدة نادرة في هذا الموضوع فأحدثت دوياً عظيماً وجاراه فيها عدد من كبار شعراء السودان ولكنهم لم يخاطبوا العرش الملكي كما فعل الجارم وإنما خاطبوا مصر الشقيقة وعلائق الأخوة بين القطرين وأشادوا بالزائر الشاعر الكبير علي نطاق الوطن العربي وانطلقت الصحافة السودانية تنقل أخبار هذه التظاهرة الأدبية الرائعة التي أعطاها مؤتمر الخريجين وشبابه المثقف حقها من الاهتمام والاحترام ولكن الشئ الملفت للنظر كما قال صاحبنا هو أننا قد كنا في الفصل الثاني من المدرسة الأميرية

الوسطي كنا متجاوبين مع هذه التظاهرة بصورة مدهشة خاصة وأن الجارم قد استهل نشاطه بزيارة مدرستنا كما سبقت الاشارة إلي ذلك وأحب أن يقف علي مواهبنا الشعرية لكننا تجاوزنا ذلك إلي تتبع قصائد تلك المناسبة وحفظها وتذوقها وإنشادها.. تري هل يمكن أن يتجاوب أبناؤنا وأحفادنا من أجيال اليوم من طلبة الآداب في جامعاتنا مع علي الجارم لو قدر له أن يعيش ويزور السودان في هذا العصر سواء كان ذلك هو أو من يماثله وهل سيعرفونهم بمجرد ذكر أسمائهم كما فعلنا بالأمس؟ أترك الإجابة لهم وفي صدق مع أنفسهم هذا وفي الحلقة القادمة سنبدأ في الشرح التفصيلي لتلك التظاهرة الأدبية وروائعها الشعرية وذكر بعض الأسماء من شخصياتنا وروادنا الخالدين..

الحلقة الرابعة

الجارم في الخرطوم يمتدح السودانيين ويقول إنهم أنسوه أهله وأسرته وأحمد محمد صالح يتهدد ويتوعد والجارم يقول له تغلبت عليّ في قصيدتك

صدح شاعر العرب الكبير علي بك الجارم بقصيدته الرائعة الجزلة في الخرطوم وهو يحيي عيد الجلوس الملكي وعلي طريق المتنبي فهو لم ينس نفسه ثم تجاوز هذه النقطة إلي أشقائه السودانيين الذين احتفلوا بمجيئه وبصورة لم يكن يتصور أنها تصل إلي درجة التظاهرة حسبما أشرنا إلي ذلك في الحلقة السابقة قال: وأنا أكتب من الذاكرة التي لا تضنّ علي بعض المواقف بالبقاء ولأطول مدي ممكن قال:

عيد الجلوس صدقت وعدك بالمني. وصدقت وعدي
عنـدي لك الدرر الحسان
وأين إن لم تلف عندي
أصبحت وحدك في الزمان
وصرت في الشعراء وحدي

ثم أفاض علي السودانيين بثناء ثر ومن ذلك الشعر المتميز النادر شاكراً لهم التفافهم حوله وإعجابهم به وتكريمهم له واحتفاله المدهش بزيارته فقال:

إني نزلت بجيرة بُسْل علي النجدات حشد
أنسيت أهلي بينهم ونسيت إخواني ووِلْدي
الضيف في ساحاته يختال من رفد لرفد
عقدوا خناصرهم علي صدق الوفاء أشد عقد
ومضت أواصرنا تمد إلي العروبة خير مد

والذي يمعن النظر في الجو الذي اكتنف المناسبة كلها لا يمكن أن تخفي علي أحاسيسه رائحة التفاعل السياسي السوداني المصري وإن كان قد بدا في الظاهر في صورة لتكريم الضيف الكبير والتعبير عن الإعجاب الفائق بشعره قبل أن يراه السودانيون ويراهم وجهاً لوجه خاصة وإن الحدث قد تطور بعد أن نشرت الصحف السودانية تلك القصيدة كاملة واحتفل بها المثقفون عامة والشعراء والأدباء خاصة ولم يبق أحد منهم إلا وقد حفظ جزءاً منها إن لم يكن قد حفظها كلها وتغني بها ولم يقف المد والجزر عند هذا الحد فحسب وإنما نشرت قصائد أخري لبعض الشعراء السودانيين الكبار أذكر منهم عبد الله محمد عمر البنا وأحمد محمد صالح الذي حظيت قصيدته بانتشار واسع وتغني بها الشباب علي الخصوص لعدد من الأعوام!

قال صاحبنا: ذلك لما حفلت به من أغراض متعددة منها إنه استهلها بالنسيب علي وجه جديد فهو لم يخاطب ليلي أو أية حسناء أخري سودانية أو عربية وإنما خاطب فينوس إلاهة الحب والجمال عند الاغريق ومنها أنه لم يُدعَ إلي الحفل الذي كرم فيه الشاعر الزائر وأغلب الظن أن سهواً أو خطأ ما قد حدث فحال دون وصول الدعوة إلي شخص مثله وفي مقامه مما يعتبر مشكلة قائمة بذاتها ولكن الشاعر لم يشأ أن يمر هذا الخطأ دون محاسبة صارمة فكان العقاب أو جاء العقاب ضمن الأغراض التي تضمنتها قصيدته التاريخية إن جاز التعبير فتعرض من ارتكبوا الخطأ لما فيه الكفاية من الإزدراء بهم وعليهم ثم عاد إلي نفسه فأعطاها حقها من الفخر والاعتزاز ثم انصرف إلي تمجيد الضيف الكبير ودعوته لتعليم الأجيال الحديثة وتبصيرها بتراث أجدادها وتاريخها وأمجادها العربية والإسلامية قال صاحبنا فكان النسيب الحديث الذي أشرنا إليه يأتي علي هذا النسق وهو يجاري في الوزن والقافية قصيدة الجارم.

قال أحمد محمد صالح:

فينوس

أخلفتِ ياحسناءُ وعدي وجفوتني ومنعت رفدي
فينوس يارمز الجمال ومتعة الأيام عندي
لمّا جلْوكِ علي املا وتخيرّوا الخُطّاب بعدي
هُرعوا اليك جماعة وبقيت مثل السيف وحدي

ثم يأتي التحريض والازدراء من جانب والفخر والاعتزاز من جانب آخر

لو كان زندي واريا ً لتهيبّوا كفّي وزندي
او كان لي ذهب المعزّ لأحسنوا صلتي وودي
لما تنكر ودهم جازيتهم صداً بصد
هذي اليراعة في يدي لو شئت كانت ذات حد
او شئت صارت علقماً سُماً يُري عند التحدي
فاذا رضيت فإنها شهد مصفي أي شهد
لي من بياني صارم وكتائب العزمات جندي

ثم يختتم هذه القصيدة الرائعة بتحية علي بك الجارم والإشادة بعلمه وأدبه وشعره ويدعوه كما سبق القول لتعليم الشباب في مصر والسودان الاعتزاز بتراثهم وأمجادهم ونبذ ما سواها من دعاوي الفرنجة وتجنب الخضوع لها أو التمسح بها أو بثقافاتها حيث يقول:

ملك القريض ووارث الحسب المؤثل من معدّ
غرد كما شاء البيان محدثاً عن خير عهد
أيام كان لواؤنا يجتاز من سهل لوهد
واذكر لنا عهد الجدود وصف لنا أيام أُحد

في القادسية يوم سار النصر من بندٍ لبندٍ
قلب صحائف مجدنا الفواح من مسك ورند
وتـغـن مـن فـن إلـي فن ومـن غـوْرٍ لنجـد

ويسترسل أحمد محمد صالح حتي يختتم قصيدته بالأبيات التالية في خطابه الشعري لعلي بك الجارم.

يا وارث الأدب التليد وبأني الأدب الأجدّ
علّم شباب الواديين خلائق الرجال الأشد
علمهمو أن الخنوع مـذلة والجبن يـردي
علمهمو أن الحياة تســير من جـزر لمد
علمهمو أن التمســح بالفرنجة غير مجد
وأبِنْ لهم أن الـعروبـة ركن أعـزاز ومجد

قال صاحبنا: ويبدو أن الجزء الخاص بالنسيب في القصيدة في أولها ثم هذا الجزء الخاص بالتمسك بالعزة والكرامة في مواجهة الإغراء الأجنبي مع الإرهاب في آن واحد في نهاية القصيدة قد لمسا في الشباب وتراً حساساً حيث يجد مثل هذا القول تربة صالحة بطبيعتها للنزوع والتمرد والحماس لانتزاع الحرية مما جعل للقصيدة طعماً خاصاً وتذوقاً حلواً أغري بحفظها وترديدها والتغني بها في الأيام فكنا نسمعها داخل فناء المدرسة من التلاميذ الكبار في الفصلين الثالث والرابع في مدرسة النهرين (أ) (ب) كما كنا نسمع منهم مقاطع رائعة من قصيدة علي الجارم ومحاولاتهم لتقليد القائه الفخم المتميز وهم يحاولون محاكاته في مخارج الكلمات وإشارة اليد الواحدة أو اليدين معاً بين الضحك والإعجاب وقد أغري هذا التجاوب القوي مع القصائد البعض منا

بمحاولة الحصول علي الصحف التي نشرت بها فعثر بعضنا علي جريدة النيل وكانت قد صدرت لأول مرة سنة ١٩٣٥م وقد نشر بها في عدد واحد قصيدتا الجارم وأحمد محمد صالح معاً.

مزيد من التوثيق

قال صاحبنا: إن الحظ قد أسعده مرة بزيارة أحد أصدقائه الأعزاء من شيوخ المعلمين والأدباء في اليوم الذي كان يكتب فيه بعض هذه المذكرات ودار الحديث بينهما حول إبداعات الرواد الأوائل فورد اسم أحمد محمد صالح ومعارضته لقصيدة الجارم فما كان من ذلك الصديق الكريم إلا أن تحرك نحو مكتبته وسلم صاحبنا ما كتبه هو في هذا الموضوع ثم أردف صاحبنا قائلاً: ويسرني أن أنقل هنا بالنص ما كتبه ذلك الشيخ المعلم والأديب المتمكن والشاعر المطبوع.

(كان الشاعر المصري علي الجارم قد أعد قصيدة عن عيد جلوس الملك فاروق ليلقيها في الحفل الرسمي الذي يقام في ا لخرطوم وبعث بها إلي جريدة النيل لتظهر في صفحاتها صباح اليوم التالي وكان الجارم صديقاً للشاعر أحمد محمد صالح يزوره كل يوم في مكتبه ويتناولان القهوة معاً (أيام زيارته للخرطوم طبعاً) وقد دعي للحفل كل الشعراء إلا أحمد محمد صالح وهو الصديق الأول لشاعر الحفل وذهب أحمد محمد صالح إلي صحيفة النيل في زيارة لرئيس التحرير الذي اطلعه علي قصيدة الجارم.التي سيلقيها في الحفل فأهاجت مشاعره إلي مجاراتها فنظم قصيدة في الليلة نفسها وقدمها إلي جريدة النيل فنشرت مع قصيدة الجارم وقد رأي الجارم في قصيدة أحمد منافسة وقوة).

قال صاحبنا إن ذلك الصديق أكد له أن هذه الحكاية تلقاها من أحمد محمد صالح نفسه وقال له أن الجارم اعترف لي بقوله أنك قد تغلبت عليّ في هذه القصيدة!

الصغار الكبار!

قال صاحبنا: إن هذه الانطباعات والذكريات ترجع إلي عام ١٩٣٦م وكاتبها تلميذ صغير في المدرسة الوسطي ويمضي فيقول كنا في تلك المرحلة الدراسية علي صغر في السن وقلة في التحصيل نبدو كباراً في الثقافة لكثرة ما نقرأ من الكتب التي بمكتبة المدرسة في اللغتين العربية والإجليزية والكتب التي نشتريها من مكتبات السوق والكتب التي نستعيرها من بعضنا خاصة أولئك الذين لآبائهم وإخوانهم مكتبات بمنازلهم وكانت المدرسة تشجع علي الاجتماعات الأدبية والثقافية عموماً ويشرف عليها بعض الأساتذة وعلي المناقشات التي يقدمها بعض الطلبة في بعض الأمسيات حول ما يقرأون من الكتب.

أساتذة وجيل

قال صاحبنا أنه لاينسي أولئك الأساتذة المُشَرِّفين حقاً في الأميرية الوسطي في تلك الفترة من النصف الثاني من الثلاثينيات وهو لن ينسي من الشيوخ شيوخ الثقافة والأدب رجالا أمثال عبد الله محمد عمر البنا وعباس العبيد وحسن عمر الأزهري وحسن أحمد بشاشة وأدباء وشعراء من الأساتذة الشباب - (الأفندية) أمثال الهادي أبوبكر وعبد القادر إبراهيم تلودي وآخرين وشخصيات من الأساتذة لم يكونوا أدباء ولا شعراء ولكنهم كانوا نجوماً في المجتمع وفي نادي الخريجين بأم درمان ثم في مؤتمر الخريجين فيما بعد ومن أبرز هؤلاء أمين زيدان وطائفة أخري ارتقت فيما بعد إلي أعلي الوظائف الأدارية

مثل عبد العزيز عمر الأمين وغيرهم.. تأوّه صاحبنا طويلاً وتساءل ماذا اكتب وماذا أترك وتذكر قبل أن يطوي صفحات هذه الحلقة الإشارة إلي صديق وجده دوّن في أوراق مكتبتة لقاءات الجارم وأحمد محمد صالح في الخرطوم ولم يشر إليه في البداية لما في جوانحه من الأحزان التي ربما حالت دون مواصلة الكتابة في تلك اللحظات.. أنه الصديق الكريم العالم والشيخ المتصوف والأديب الظريف والشاعر المجيد المرحوم مصطفي طيب الأسماء الذي رحل عن دنيانا قبيل فجر السبت ٢٤ يونيو ٢٠٠٠م اجزل الله له عطاءه وأحسن عزاءنا فيه .. ثم إلي لقاء ومازلنا في المدرسة الأميرية الوسطي!!.

الحلقة الخامسة

أساتذة الجيل الماضي الذين عرفناهم شيوخاً وأفندية كانوا مثال الأناقة والظرف والدعابة وكنا نقرأ في المجلات المصرية معارك العمالقة طه حسين والعقاد والرافعي وزكي مبارك وآخرين.

ولاينسي صاحبنا كذلك أنه كان يذهب لمكتبات السوق ليشتري مجلة الرسالة ثم واظب فيما بعد علي أن يأتي معها بمجلة الثقافة المصريتين الأسبوعيتين وكانتا توصفان يومها بالأرستقراطيتين لأن أبوابهما لا تفتح إلا لنشر المادة الجيدة جداً وفي مستوي معين يقبل الحد الأعلي ولا يقبل الأدني علي نطاق العالم العربي كله. ويعترف صاحبنا بأنه كان في بعض الأحيان يصعب عليه تفهم ما كان الكاتب أو الشاعر يريدان أن يقولا ولكنه كان يعجز لحداثة الانفتاح علي الثقافة وقلة التحصيل. ولكنه بعد حين تغلب علي تلك الصعوبات فأخذ يهضم وبيسر كتابات زكي مبارك وعلي الطنطاوي وأحمد حسن الزيات صاحب الرسالة علي ما في كتاباته من التأنق والسجع في بعض الأحيان.. وكان يتعب في تفهم كتابات العقاد وقد كان إسلوبه يبدو معقداً كما كان يتهمه البعض ولكنه يعني صاحبنا بعد ردح من الزمن ومواصلة القراءة لم يعد يحس بذلك التعقيد!. وكان يحب دراسات سيد قطب كما كانت تعجبه جداً مقالات مصطفي صادق الرافعي والحرب التي كانت طاحنة بينه وبين طه حسين والمعارك التي دارت بين زكي مبارك وأحمد أمين بك صاحب مجلة الثقافة وكان أسلوب طه حسين بسلاسته وحسن إيقاعه يكاد يفتنه وكان يعجبه في أسلوب أحمد أمين العلمية والتعمق. ويكاد يطرب لمقالات محمد سعيد العريان بعنوان:

«هذا رأيي وعليّ تبعته وحدي» وكما كان سيد قطب تلميذاً للعقاد فقد كان العريان تلميذاً لمصطفي صادق الرافعي.

هذا ما وعته الذاكرة واحتفظت به من قراءات طالب السنة الثانية الوسطي بأم درمان من المجلآت أما الكتب فلا سبيل إلي إحصائها أو حتي تذكرها إلا أنه ظل يذكر وبوضوح قراءته لمؤلفات المنفلوطي «العبرات والنظرات» وعدة مجلات ودواوين منها ديوان عنترة والمعلقات وديواني حافظ وشوقي والبعض من أشعار الزهاوي والرصافي العراقيين وكان بعض قصائدهم ينشر في مجلة الرسالة.

طرائف المعارك الأدبية والثقافية

كانت المعارك الأدبية والثقافية بوجه عام تلفت الأنظار وهي تدور بين أولئك الجهابذة علي صفحات مجلتي الرسالة والثقافة بسبب الخلافات في وجهات النظر وربما بدوافع التنافس الثقافي وكان لأولئك الرجال الأفذاذ بين القراء علي سعة الوطن العربي اتباع ومؤيدون ورأينا فيما بعد من ينتمون لمدرسة العقاد أو مدرسة طه حسين أو مدرسة الرافعي إلي آخر تلك القائمة وكان تلاميذ هؤلاء وأولئك يشتركون في المعارك حتي عندنا في السودان .. وكان سعد زغلول نفسه يقول عن أسلوب الرافعي (بيان كأنه سحر من السحر أو تنزيل من التنزيل.)

وكان الرافعي يسخر من تقويم طه حسين ونقده للشعر فيقول:

ثـلاثــة مـضـحكة لعمـري

اسفنجة تسعي لشرب البحر

وشمعة ضاعت لشمس الظهر

والشيخ طه في انتقاد الشعر

والشيخ يريد بها أن يغطيّ علي شهادة الدكتوراه من السوربون والثقافة

الأوربية الحديثة التي حصل طه حسين عليها بعد عودته من باريس في ملابس أوربية حديثة عقب الدراسة الأزهرية وزعم أنه رمي بالطربوش المغربي والفرجية والقفطان في قاع البحر الأبيض المتوسط منذ أن توجه نحو أوروبا. ومن ناحية أخري فإن الرافعي والطنطاوي وسيد قطب كانوا من رواد الدعاة إلي الثقافة العربية والإسلامية المتشددين وكان سيد قطب في اعتقادي أول من أمعن النظر في الأسلوب القرآني وجاء بتفسير أدبي حديث لم يسبقه إليه أحد عندما فاجأ القارئ العربي بنظرية « التصوير الفني في القرآن» وعلي سبيل المثال فهو يأتي بالآيتين ٣٢ و ٣٣ من سورة المرسلات في وصف نيران جهنم «إنها ترمي بشررٍ كالقصر - كأنه جمالت صفر فالآيات القرآنية كان يمكن أن تشير إلي حجم الشرارة بأنه كبير فحسب ولكن تشبيهها بالقصور وبالجمال إنما يعني الوضوح والتصوير. وكان الناس يقولون أن سيد قطب لم يسبق إلي هذه الالتفاتة منذ صدر الإسلام، وقد مضي سيد قطب في أبحاثه الأدبية الإسلامية ثم انضم فيما بعد إلي الأخوان المسلمين ولكن العقاد نفسه بدأ فيما بعد يميل إلي الثقافة الإسلامية ثم ألف العبقريات التي بهرت العالم الإسلامي كله. ووصف سيد قطب بأنه أفسده الاخوان المسلمون وزكي مبارك حصل علي شهادة الدكتوره ثلاث مرات وأخذ يقول أنه ليس الدكتور زكي وإنما هو الدكاترة زكي مبارك.. وكان كتابه: ليلي المريضة في العراق آية من آيات الإبداع والسلاسة ونشأت بينه وبين شاعرنا الكبير محمد سعيد العباسي علاقات حميمة ووثيقة وتبودلت فيها قصائد الشعر والأدبيات المتفردة.

لكنه هاجم نظريات أحمد أمين في تاريخ الإسلام والأدب العربي في أكثر من ثلاثين مقالاً نشرت في الرسالة بعنوان: جناية أحمد أمين علي الأدب العربي!!.

أما طه حسين فقد هاجم أولئك الأدباء الذين كانوا يلتفون حوله وهو وزير ثم انفضوا عنه بعد سقوط الوزارة وسرعان ما عادوا إليه بعد اشتراكه في وزارة تالية فقال لهم وهو لايعرفهم - بالطبع - إلا بأصواتهم وتلمس أيديهم قال لهم

أدبرتم حين أدبرت وأقبلتم حين أقبلت؟!»

والحديث عن أولئك الرواد العمالقة حلو وكثير ولكن: صاحبنا يورد إلينا هذه النماذج في إيجاز ووفق ما تجود به الذاكرة حول النشاط الثقافي وتتبعه في السودان..

وأخري حلوة في السودان

قال صاحبنا أنه كان يقرأ تلك الجرائد السودانية التي كان يحضرها خاله إلي المنزل وعلي الاخص جريدة النيل التي كانت تصدر ملحقاً أدبياً أسبوعياً وبه أحياناً قصائد لأساتذته البنا وعباس العبيد وعبد القادر تلودي وهو لاينسي دروس محمد أحمد سليمان والد غازي وبدر الدين وقد خلفه الهادي أبو بكر في تدريس التاريخ وقد كتب لنا علي السبورة في أول حصة أبياتاً من شعر شوقي:

قفي يا أخــت يوشــع خبرينا
أحــاديث القرون الغابرينا
وقصي من مصارعهم علينا
ومن دولاتهم مـا تعلمينا
فمثلك مــن روي الأخبــار طرا
ومن نســب القبائل أجمعينا

فكانت مدخلاً لدراسة التاريخ وأهميته كما قال لنا الأستاذ الهادي أبو بكر كما أن صاحبنا لن ينسي كما قال: دروس البنا وعباس العبيد في اللغة العربية

ولا دروس عبد العزيز عمر الأمين في الإنجليزية وقد خلفه تلودي فكانوا جميعاً ظرفاء ولطفاء وكان ممن درسهم العربي في فترة تالية حسن أحمد بشاشة وكان لبعضهم كلمات يضحك منها التلاميذ ثم يأخذون في ترديدها كقول بشاشة يا أولاد الحفر.. وقول الهادي أبو بكر: طيب مادام أنت «ما انتيش» عارف رافع أصبعك ليه؟ وملحوظات عباس العبيد في كراسة الإنشاء.. ويومها قال لي: أنت يمكنك اليوم أن تذهب إلي الجرائد وتعمل صحفياً مقتدراً لأن لغتك أفضل وأصح من كثير مما نقرأه هذه الأيام!.

التنبؤ العجيب

قال صاحبنا: لقد كان هذا التنبؤ عجيباً حقاً فقد جمعتنا الظروف بعدما يقارب العشرين عاماً أو يزيد. الأستاذ وتلميذه وهما يجلسان علي مقعدين متلاصقين علي طائرة متجهة إلي مصر تلبية لدعوة رسمية فذكر التلميذ لأستاذه ذلك التنبؤ وقال له أنا فلان وأنا اليوم صحفي سوداني ومن غرائب الصدف أنه كان يجلس أمامهما شاعر آخر كبير وأصبح عضواً في أول مجلس للسيادة.. أنه أحمد محمد صالح ونترك الحديث عن هذه المناسبة لأنها ستأتي إن شاء الله في مكانها من حيث التسلسل الزمني الذي تسير وفْقَهُ هذه الذكريات..

الأساتذة والظرف والأناقة

قال صاحبنا ومن مميزات أولئك الأساتذة شيوخاً وأفندية كما كان يقال آنذاك أنهم يرتدون الملابس الأنيقة ويتحلون مع تلاميذهم بروح الفكاهة مما كان يخفف من صرامة حضرة الناظر علي أسلوب النظام والجدية فعباس العبيد كان أديباً متعمقاً وراوية، كثير الحفظ كما كان شاعراً وكان إلي جانب تدينه كثير الفكاهة.. والدعابة اللتين يوردهما من محفوظه التراثي الغزير كان أنيقاً يرتدي

أفخم الفرجيات والقفاطين والأحزمة وكان البنا يفوقه في نكات الشعر ولكنه لايحفل بالأناقة وكان بشري عبد الرحن المقبول من طرازهما إلا أنه كان أفندياً يكتفي بلبس القميص والبنطلون فقط ويكثر من النكات باللغة العامية .. أما ملكا الأناقة من أساتذتنا الأفندية فهما عبد القادر تلودي وعبد العزيز عمر الأمين في البدلة الكاملة ورباط العنق.!

دنيـــا..!

أو «موت دنيا» كما سمي الأديبان الكبيران محمد أحمد محجوب ودكتور عبد الحليم محمد كتابهما الذي صدر منذ ما يماثل نصف القرن تقريباً بهذا العنوان وهما يصوران الخرطوم وبعض جوانب حياتهما في العاصمة المثلثة ويسترجعان ذكريات شبابهما وبينهما صلة الرحم في الهاشماب..

لقد كانت أم درمان في منتصف الثلاثينيات أو بالتحديد قبل الأربعينيّات مدينة صغيرة بمقاييس اليوم كبيرة بمقاييس الأمس فهي تتكون من الموردة والهاشماب والعباسية والسوق والمسالمة وفريق العرب ثم تتجه شرقاً نحو الركابية وبيت المال حتي يطل أبو روف علي النيل وفي الشمال ود درو وهي حتي علي هذا النطاق كانت تعتبر كبري مدن السودان بسبب ما ورثته عن عهد الخليفة عبد الله من تهجير الناس إليها من مختلف مناطق السودان وخاصة أولئك الذين كان لأجدادهم الجاه والعصبية لأن الخليفة بسياساته الأمنية الحذرة كان يريدهم أمام عينيه وبالرغم من ذلك كله فإن سلاطين قد أفلت من حصار كان أضيق وأشد بعد أن أعلن إسلامه وكلف بالآذان للصلوات الخمس وفي البداية تم ختانه!!.

لقد كانت أمدرمان مدينة هادئة وقد أتاح التجاور القديم للآسر فيها التصاقا حميماً فيما بينها نشأت عنه العلاقات والمصاهرات وتلاحم العائلات وكانت تسميتها بالعاصمة الوطنية في بدء وعي الخريجين اسما علي مسمي فهي ليست عاصمة المهدية البقعة المبارك فحسب وإنما عاصمة الوعي والثقافة والحركة الوطنية وقد كان اكتسابها هذا الطابع الوطني يظهر في صور عدة إذا ما قورنت علي سبيل المثال بالخرطوم وبعض المدن الأخري التي سكن فيها السودانيون في أحياء يقطنها أجانب أو جاءوا إليها في أوقات تفصل بينها فترات زمانية متباعدة فلم يكونوا يعرفون بعضهم بعضاً إلا في حدود وليس بينهم اتصالات اجتماعية باستثناء بعض السلالات المعروفة في منطقة السوق العربي أو في الخرطوم علي عكس الوضع الذي أشرنا إليه في أم درمان اذ كان أهل الأحياء فيها يفطرون في رمضان جماعات جماعات وعلي قارعة الطريق محافظين علي العادات السودانية في القري والأرياف قال صاحبنا يكفي هذا وسنعود إلي ام درمان والحديث عنها في حلقة قادمة بمشيئة الله.

الحلقة السادسة

لقد رأيت الأمير يونس ود الدكيم وسمعت عن طرائفه ومنها تهديده بشرب البحر! وتجمع الروايات علي أنه أشجع الأمراء في مخاطبته للخليفة عبد الله بكل صراحة وندية

كانت أم درمان مزدهرة التجارة وكان تجار الجملة فيها هم قبلة تجار الأقاليم وحتي تجار الخرطوم والخرطوم بحري والقري حولهما وكان الرخاء فيها مضرب المثل وعلي سبيل المثال كنا كتلاميذ صغار نشتري البرتقالة بقرش واحد وهي لا تعطي اللون الأصفر وإنما اللون الأحمر أو القريب من الإحمرار إلي جانب الحلاوة البالغة والنكهة الطيبة وهي مستوردة من فلسطين وكان التجار الشوام أو اليونانيون يقولون لنا أنها مستوردة من يافا وحيفا وقد لفت بأوراق بيضاء خفيفة ربما كانت هي أوراق السلوفان أو ما شابهها!!.

وكان طعام الإفطار الذي نتناوله في المدرسة أن كان بالفول والجبنة والرغيف والطعمية لا يزيد ثمنه علي نصف القرش وهو خمسة مليمات سودانية! «تعريفه» صحيح أن الرخاء كان يشمل السودان كله ولكن صاحبنا وقد جاء من شندي كان يتوقع أن هذه العاصمة الكبيرة لابد أن تكون أسعار الحاجيات فيها أعلي ولكنه وجدها علي عكس ما يظن بالرغم من ازدحامها بالسكان ووفرة القوة الشرائية فيها.

بطيخ الملجة

وهو لاينسي أيضاً كيف كان هو ورفاقه يأتون إلي سوق «الملجة» فيشترون البطيخة في أكبر حجم بثمن قد لايصل إلي الخمسة قروش فيتحلقون عند صاحب البطيخ فيقطعها لهم ثم يغادرون المكان وقد امتلأت بطونهم امتلاء شديداً!

لقد كان صاحبنا كريماً وسخياً بما يشتري لنفسه ولأصحابه لأن راتبه الشهري الذي يصل إليه من والده في شندي كان كما سبق القول - ثلاثين قرشاً بالتمام والكمال وهو يكفي لإفطاره في المدرسة وللفاكهة التي يشتريها أحياناً كالبرتقال الفلسطيني وللمجلات المصرية التي يشتريها أسبوعياً من مكتبة الثقافة لصاحبها الأستاذ حسن بدري وقد كان أديباً معروفاً وشاعراً متمكناً وكانت مكتبته في ميدان المحطة الوسطي بأم درمان

يونس ود الدكيم!!

ومما يذكره حول زياراته لأحياء أم درمان زيارته إحدي المرات للصديق أحمد أدم عوض الذي جاء مثله من شندي لتلقي الدراسة الوسطي. وكان يذكر أنه وجد في الغرفة الخارجية القريبة من باب الحوش رجلاً عجوزاً هرماً لايكاد يفتح عينيه راقداً علي الفراش علي ظهره ووجهه متجه إلي أعلي فسأل صديقة أحمد:

من هذا الرجل العجوز؟

فأجاب أحمد آدم:

إنه جدي لأمي يونس ود الدكيم فمرت الإجابة دونما اهتمام من صاحبنا لأنه لم يكن يومها قد سمع بهذا الاسم أوقرأ عنه بعد كما لم يشأ أحمد آدم بحكم أخلاقياته الكريمة وتواضعه ورزانته أن يسأل صاحبنا: ألم تسمع بهذا الاسم؟ كما لم يشأ أن يفاخر بمثل ذلك الجد الذي كان من أكابر قواد المهدية وأمرائها بالإضافة إلي علاقاته الوثيقة بالخليفة عبد الله (ودتورشين)كما كان يخاطبه!

ثم دارت دورة الزمن وإذا بصاحبنا يقرأ الكثير عن شخصيات المهدية خارج النطاق المدرسي ومن أكثر الشخصيات ذات السيرة الطريفة كانت شخصية

الأمـيـر يونس ود الدكـيم وكـان كلمـا وقف علي مـعلومـات جـديدة عنه تـعـود به الذاكرة إلي ذلك اليوم الذي وجده فيه في أم درمـان لدي زيارته لزميله وصـديقه أحمد آدم عوض في النصف الثاني من ثلاثينيات القرن العشرين!

وشـاعت الظروف أن يلتقي صـاحـبنا بالزميل القديم أحـمد آدم في منتصف الأربعينيات بالدامر وكان يهم بأن يجمع بعض المعلومات عن جده في تلك الفترة الأخيرة من عمره الطويل إلا أن الانشـغال بتفاهات الحياة اليومية مع الأسف حال دون الإفادة من تلك الفرصة السانحة التي لم تتكرر بين الصـديقين منذ أمد طويل. ويونس ود الدكيم كان أشـجع قواد المهدية في تعامله مع الخليفة عبد الله ومـخاطبته وقد سـمعت الكثير الذي لم أشـأ أن أدونه لأنه لايستند إلي توثيق أو رواة مـحـايدين علي مـا فـيـه من فكاهة وطرافة تميز بهـمـا ذلك الأمـيـر المهـدوي الشجاع.

وواصل صـاحـبنا حـديثـه حـيث قـال: اتصلت مـرة بـالأخ الصـديق العـالم البروفيسـور أبو سليم وذكرت له مـا سـمـعته عن حكايات ود الدكيم مـع الخليـفة عـبـد الله ورفع الكلفـة بينه وبين ا لخليـفـة عـبـد الله مما لايقـدر عليـه الآخـرون فـأجابني أنـه لايستطيع أن يقرر صـدق هـذه الحكايات من عدمـه ولكنه يوافقني علي شـجـاعـة ود الدكيم فـي مـخـاطبـة للخليـفـة عـبـد الله وفـأجـأني بـأن بعض الروايات تقول إن الرجلين كانت بينهما علاقات مصاهرة داخلية وثيقة.

ود الدكيم يهدد البحر

تقـول إحـدي الروايات. المتـواترة أن تمسـاحـاً اخـتطف أحـد غلمـان الأمـيـر فـغـضـب غـضـبـاً شـديداً وأقسم أن يذهب إلـي البـحـر فـيشـربه ويـترك «بـلابيطه» الأسـمـاك وغـيـرهـا في العـراء إلا أن رجـاله كـانوا أذكـيـاء فـحـرصـوا علي ألا

يعرضوه للحرج فأمسكوا به وحالوا دون إقدامه علي شرب ماء البحر خوفاً علي الناس أو المسلمين من الظمأ!!

وقالوا إنه بعد أن بسط الحكم الثنائي سلطانه علي السودان دعا بعضهم الأمير ود الدكيم وهم يتحدونه ليذهب إلي البحر فيشربه كما كان يتهدد ويتوعد فماذا قال لهم؟

قال: كان ذلك ممكناً في الماضي لأن خلفي رجالاً ولكن الآن من خلفي؟ فكانت إجابة بليغة حقاً لعلها أسكتت المتحدين وأضحكتهم وربما ألجمت أفواههم!.

قرية شمبات ومدرسة بحري

حدثت فجأة انتقالة ثانية في حياة «القروي الصغير» الأولي كانت من قندتو وشندي إلي أم درمان ومدرستها الأميرية الوسطي أما الثانية فإلي قرية شمبات ومدرسة الخرطوم بحري الوسطي فتأثر ذلك الاستقرار الذي كان ينعم به لمدي ثلاث سنوات وهو يقيم بمنزل خاله ضابط بوليس المدينة وهو كما سبق أن أشرنا إليه هو منزل «شيخ الدين»ابن الخليفة عبد الله التعايشي في الاصل إذ نقل ذلك الخال الكريم من أم درمان إلي كسلا فأقام مع بعض أقاربة الذين كانوا من رجال الشرطة كما كانت منازلهم الصغيرة الضيقة قريبة من منزل الخال وكانت كلها داخل السور العظيم الذي بني في عهد المهدية! فما أن مضت أسابيع قليلة حتي اتصل به قريب آخر من جهة أبيه هو محجوب حضرة وهو ابن عمته الحرم بنت حامد ود عبد القادر ليتفقد وضعه الجديد ثم عرض عليه أن يقيم معهم بشمبات حيث تتسع المنازل ويمكنه أن يقيم وحده في حجرة خاصة به وداخل «حوش» كبير لكي يتسني له أن يدرس ويذاكر ويقرأ في هدوء

وقال أن عمتك الحرم أصبحت مشغولة عليك بعد سفر خالك إلي كسلا وهي قد أرسلتني إليك لتستجيب إلي رغبتها فلا تحرمها من قربك! لقد سعد صاحبنا بالعرض لكنه كان يشعر بهمين اثنين الأول: كيف يقول لأقاربه الطيبين أنه سيرحل عنهم ليقيم مع عمته وأسرتها في شمبات، والثاني هو بعد الطريق بين شمبات والأميرية الوسطي بأم درمان .

أبو البنات

وحسن الظاهر مرة ثانية وقد يأتي ذكره مرة ثالثة علي الأقل وهو يجمع بين الجدية والصرامة من ناحية وبين الرقة والإنسانية من ناحية أخري.

قال لي زميلي والرواية لصاحبنا والزميل هو مالك محمد عبد الماجد وكنا نجلس في الصف الأول في الفصل أما للصغر أو القصر متجاورين قال إن حضرة الناظر وجد مكانك خالياً فسأل أين فلان فقلنا له أنه مريض منذ يومين وهو يسكن الآن في شمبات بعد نقل خاله من أم درمان إلي كسلا قال أعرف هذا ولكن شمبات بعيدة عليه وأطرق لحظة ثم قال لنا متسائلاً: هو بالغ؟ قال مالك فاستغربنا السؤال وضحك بعضنا فاردف حضرة الناظر وددت لو أني دعوته ليقيم معنا في منزلنا ولكني أبو بنات وهو ولد جاد يرجي منه قال مالك فعرفنا سر سؤال أبي البنات الذي كان يبدو لنا غريباً وربما مضحكاً.

والمهم قال صاحبنا أن هذا الناظر هو ذلك الرجل نفسه الذي تحدثنا عن جديته وصرامته في الحلقات السابقة، لكنه في هذا الموقف يرق قلبه ويود لو أنه استطاع أن يقدم لذلك التلميذ خدمة تصل درجة الإقامة معه في منزله، إنه يتعامل مع كل موقف بعدالة وإنصاف ولا ننسي هنا أن نشير رلي أنه يؤدي دور المربي والمعلم المسئول حقاً وعلي مساحة شاملة تلم بأحوال الطالب في المدرسة وخارج المدرسة بما في ذلك ظروف حياته ومعيشته!!.

السودانيون والمشاعر الإنسانية

لم يشأ صاحبنا وهو يسجل هذه المواقف الإنسانية العالية أخلاقياً وسلوكياً أن يمر عليها مر الكرام وقد مضي عليه نصف قرن علي الأقل وهي تتولد من سرد تفصيلي بسيط للحياة آنذاك إلا أنها قد عكست في الوقت نفسه تلك المثاليات النادره فأقاربه الذين كان معهم في منازل البوليس كانوا حريصين علي أن يبقي معهم لقرب منازلهم من المدرسة كما أن ابن عمته محجوب حضرة كان مهتماً بأن يوفر له سكناً مريحاً وحتي حضرة الناظر اهتم بدوره بهذا الهدف نفسه.

رجع صاحبنا إلي الوراء وهو يتأمل تلك الذكريات وتلك المشاعر الرقيقة التي تدفقت نحوه من هنا وهناك أن مجتمعنا السوداني له خصائصه الإنسانية الطيبة وإحساسه التكافلي العظيم طبعاً وسجية.. لقد أحب صاحبنا أولئك الأقارب جميعاً وكانت تلك التجربة الطارئة تشكل بالنسبة له درساً تربوياً فيما يتحتم عليه أن يعيه جيداً وأن يتعلم منه أن الإنسان يجب عليه أن يحب الناس!.

شمبات والطريق والمعدية

كان الطريق طويلاً إلي حد ما من منازل الحضراب حتي المُشرع حيث يعبر الناس النهر علي ظهر المعدية إلي أبي روف ثم يأخذون الترام إلي محطة أم درمان الوسطي ويبقي لصاحبنا بعد هذا طريق قصير يقطعه علي الأقدام حتي يصل إلي المدرسة الأميرية الوسطي.

كان صاحبنا يواصل هذا العناء يومياً ذهاباً وإياباً حتي أكمل السنة الثالثة فقرر أن يدرس السنة الرابعة الوسطي بمدرسة الخرطوم بحري والطريق بينها وبين سكنه في شمبات أقرب وأيسر.

السابعة

في المرحلة الوسطي قرأنا مقدمة ابن خلدون ومبادراته الرائدة في علوم السياسة والاجتماع وشهدنا كيف ارتقي مستر سمبسون بمدينة بحري وردم طريق الأوحال الذي رصفه فيما بعد الفريق عبود!

قال صاحبنا إنه أسف أول الأمر لفراق أصدقائه من التلاميذ الذين عاش معهم لمدي ثلاث سنوات وأساتذته الذين أحبهم وحضرة الناظر الذي لم يكن يخطر بباله قط أنه يمكن أن يكون مشغولاً بأمره لدرجة أنه كان يود أن يتيح له الإقامة بمنزله.. ولكنها سنة الحياة وسرعان ما وجد في شمبات العوض الكثير في الحي الجديد الذي انتقل إليه والمدرسة الجديدة التي التحق بها وكانت عمته الحرم امرأة فائضة الحنو تحب أن تطمئن دائماً إلي أنه يتناول وجباته اليومية بأنتظام وأن بناتها يغسلن ملابسه ولم يكن ابنها محجوب الذي أحضره من أم درمان يغفل عن شئ من ذلك وكذلك كانت زوجته والدة محمد محجوب حضره وأخوته كان يحس أحياناً بأنه شغل هذه الأسرة الكريمة بأمره كثيراً وكثيراً وبأنه إنما أصبح عبئاً لا مبرر لاحتماله بهذه الصورة علي أساس من الحساسية التي جبل عليها ولكن محجوب وقد أدرك ما يعتمل في نفس ابن الخال كان يقول له: أنت ولد الراجل ونحن مدانون لأبيك بالكثير عندما كنا أطفالاً في قرية قندتو!

هواية القراءة

وجد صاحبنا عند ابن عمته محجوب مع فارق السن والتحصيل هواية مشتركة هي حب القراءة لقد وجد عنده كتباً كثيرة فأصبح يقرأها ويتناقش معه حول محتوياتها وهو مازال يذكر أنه وجد عنده (مقدمة ابن خلدون) فكان وقوفه

علي مثلها يشكل طفرة ثقافية نادرة ويذكر أنه عندما حصل عليها بعد عشرات السنين وأخذ يعيد قراءتها أدرك أنه لم يكن يتبين بالأمس هذه المرامي الفكرية البعيدة المدي التي كان ابن خلدون (عبد الرحمن) يحلق في سماواتها في فترة حياته المتقدمة بالنسبة للعلوم والثقافات المعاصرة اليوم وقد عاش (١٣٣٢ - ١٤٠٦) هـ وفق ما كتبه في الفلسفة والاجتماع والتاريخ وقد وصفوا كتابه الذي أشرنا إليه بأنه (خزانة للعلوم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأدبية) وسبحان الله الذي جمع العالم في واحد!!

ووجد صاحبنا عند ابن عمته محجوب بن الخليفة عثمان بن حاج الصديق حضرة فيما يقرأ شيئاً جديداً عليه هو المجلات الصحفية الملونة كالمصور واللطائف المصورة وآخر ساعة وغيرها وهي سياسية وفي الغالب وتحفل بالكثير عن الحياة السياسية في مصر: الخديويين، والباشوات، والوزراء، والأحزاب وعلي رأسها حزب الوفد وصراعاته مع جلالة الملك ورجال القصر! وقد أغرته. المسائل الصحفية التي كانت تحرص تلك المجلات علي إيرادها مع بساطة الأسلوب في طرحها بإدمان الاطلاع فيها دون أن يتوقف عن قراءة مجلاته الأدبية والثقافية التي كانت تختلف عنها كثيراً في الغاية والأسلوب وقد ارتبط بها شكلاً وموضوعاً ارتباطاً حميماً في مسيرته الأدبية لاحقاً.

وفي هذا الجو الثقافي المتطور الذي كان يعيشه صاحبنا بعد رحيله إلي شمبات والتحاقه بمدرسة الخرطوم بحري الوسطي كان هناك شئ واحد يزعجه كثيراً وهو المواصلات بين المكانين، ومما تجدر الإشارة إليه تاريخياً وعمرانياً أنه لم يكن قد وجد علي الخريطة ما يسمي الآن بالصافية والمزاد وامتدادات الخرطوم بحري تجاه شمبات أو امتدادات شمبات تجاه الخرطوم بحري وإنما

كانت هناك منطقة صحراوية تمتد بعد الحضراب والديم جنوبا حتي (الديوم) بالخرطوم بحري وكانت الأخيرة تتكون من الحيين القديمين حلة خوجلي وحلة حمد من الجهة الغربية للمدينة والنقل الميكانيكي والمخازن ومحطة انسكة الحديدية من الجهة الشرقية وفي الوسط سوق الخضار تجاوره شرقاً بيوتات (العزبة) الخاصة ببعض الأسر المترفه بمقاييس ذلك الزمان ولاننسي حي الدناقله غرب وشمال السوق قبل ان يعرف مايسمي حالياً الدناقلة شمال والدناقلة جنوب.

أما المدرسة الوسطي فقد كان مبناها في آخر نقطة من الجهة الغربية، وكان سوق الخرطوم بحري الأول يتكون من ثلاثة أو أربعة صفوف تمتد من الشمال إلي الجنوب وهي مبنية من الجالوص في شكل حوانيت صغيرة وفي ساحة في الوسط الجزارة وسوق الخضار وكانت أمام الحوانيت فراشات السعف ومعروضاتها الشعبية البسيطة!

ثم هبت رياح التغيير

ومع بداية الأربعينيات أخذت رياح التغيير تهب علي الخرطوم بحري في شكل المباني المتطورة وفي ملء الفجوات بأحياء جديدة وفي إعادة بناء السوق الأول والبدء في بناء السوق الثاني وأخذ النمو والتطور يتسابقان ولكن في هدوء وحذر ووفق الإمكانات الاقتصادية المتاحة

أما الطريق فلم يتغير.

أما الطريق الذي يربط بين شمبات وبحري فلم يتغير وهو يشق تلك المنطقة الصحراوية الطويلة التي سبقت الإشارة إليها فالبعض كان يقطعه بالحمير والبعض الآخر بالعجلات (البسكليتات) وبعض آخر بالأرجل ثم ظهرت بعد

استهلال الاربعينيات السيارات العمومية التي كانت في الأصل (لواري) ترحيل فعدلت لتصبح سيارات نقل شعبي ولكن المشكلة الكبري كانت تحدث أيام الخريف وأمطاره الغزيرة في ذلك الزمان حيث تتجمع المياه وتختزن الطين في أراضي كانت أصلاً زراعية ولكن زراعتها أهملت فيضطر الجميع إلي خوض المياه والأوحال لقطع تلك المسافة الطويلة بين القرية والمدينة!

مستر سمبسون والتاريخ

لقد تنبه مفتش المركز البريطاني في تلك الفترة إلي عمل شئ ما أقل بالطبع من سفلتة ذلك الشارع لأنها مكلفة للغاية خاصة في مثل ذلك الزمان ولكنه صعب عليه أن يري الناس في تلك الحال وهو المسئول الأول إدارياً!!

ونعود إلي الطريق الصحراوي الطويل والذي يتحول في أيام الخريف إلي مياه وأوحال فقد حزم المفتش البريطاني مستر سمبسون أمره علي أن يقيم عليه (ردمية) عالية تجنب العابرين تلك الصعوبات وقسوتها سيما وأن مستر سمبسون يدرك تماماً أهمية ذلك الطريق بوصفه الشريان الوحيد الذي يربط المدينة بضواحيها التي هي ليست شمبات وحدها وإنما الحلفاية والمنطقة شمالها حتي الجيلي وبما أن ردمية مستر سمبسون قد خفضت الكثير مما كان يعاني منه الناس إلا أن السيارات والدراجات كانت تتعرض أحياناً للوحل وكان أسعد الناس أولئك التلاميذ الذين كانوا يستعملون الحمير!

تشجير المدينة

لقد كان ذلك المفتش البريطاني رجل عمل بحق وحقيق فهو إلي جانب إنجاز طريق الردمية فقد أهتم بالكثير مما يدخل في تخطيط المدينة وتنظيماتها اهتم للغاية بتشجيرها وأمر بإنزال أقصي العقوبات بأصحاب الحيوانات التي كانت

تتسلل إلي الأشجار وهي في ريعان نموها وخاصة الأغنام التي كان معروفاً أن فتكها بالأشجار خطر للغاية فكانت تقبض وتحبس ولا يطلق سراح الواحدة منها إلا بعد أن يدفع صاحبها خمسين قرشاً غرامة وكان هذا المبلغ يعني يومها الشئ الكثير وعلي سبيل المثال فهو يمكن أن يكفي لشراء غنماية شابة ولدت لأول مرة!! وبسبب هذه الإجراءات الصارمة حرص سكان المدينة علي الإمساك بحيواناتهم ونمت الأشجار التي أصبحت حتي اليوم تظلل بعض مناطق الخرطوم بحري خاصة في الأملاك الشرقية والغربية والطريق الرئيسي من كوبري بحري إلي منطقة السوق ومن الأملاك الغربية إلي حديقة البلدية (قصر الصداقة) مؤخراً.

السـيرة

ومما يروي عن مستر سمبسون أنه كان يتفقد المدينة في الصباح الباكر ومعه مساعدون بالمركز والعمدة في موكب كان الأهالي يسمونه (السيرة) لما فيه من شبه بسيرة العريس في الزفاف وقد امتطي هو وحاشيته الرسمية صهوات الخيول والحمير.. وإذا كان الشئ بالشئ يذكر فإن جميع المفتشين البريطانيين كانوا يمارسون عملية السيرة الصباحية لتفقد المدينة حيث يشاهدون بأعينهم مستوي النظافة العامة والمظهر الصحي وانتظام المباني والشوارع إلي آخره وهو أسلوب إداري راقٍ وذهب بذهاب الإداريين البريطانيين.

ولكن وبكل أسف فإن تلك التقاليد الإدارية الراقية كانت تذهب بذهاب واضعيها وبعد مضي حوالي عشر سنوات جاء صاحبنا إلي شمبات فوجد الردمية تكاد تمحي والحالة تسوء أكثر فأكثر مع أن الإنجليز لم يخرجوا من السودان بعد ووجد صاحبنا نفسه وهومدان لشمبات ولمدينة بحري وأنه لابد أن

يعبر عن امتعاضه نثراً أو شعراً في الصحافة خاصة وأنه قد أصبح قادراً علي صياغة أفكاره بصورة مناسبة وفي تلك الظروف ١٩٥٠ صدرت جريدة الصراحة لصاحبها صديقنا المناضل الثائر عبد الله رجب رحمه الله فبعث إليه بقصيدة عنوانها (شكوي وعتاب) مهاجماً فيها مجلس مدينة بحري والمجلس الريفي معاً وربما موبخاً لهما علي عجزهما عن تقديم ما قام به المفتش البريطاني ممثل الاستعمار وهم أهل البلد وممثلو الوطن والوطنية.

بعض من القصيدة

والقصيدة ربما كانت طويلة لذا فأكتفي بإيراد البعض من أبياتها:

مجلس البلدة الوقور عتاباً موقراً

من أناس تركتهم أتعس الخلق والوري

أهل حلفاية الملوك وشمبات في القري

أنت أهملت دربهم منذ سمبسون أدبرا

أتري كان والياً منك أولي وأقدرا

أم تري كان حانيا

يبذل العطف أكثرا

وورد فيها أيضاً والضمير يرجع إلي مستر سمبسون

ليته كان عالماً بالذي بعده جري

غودر الدرب بعده دارس الرسم منكراً

بعدما كان مشرفاً واضحاً عالي الذري

ها هو اليوم قد غدا أنهراً ثم أبحرا

مـا لســــيـارة بـه أمــل أن تســيـرا

وتري الطين حـوله قبـح الطين منظراً

ممسكاً وحله المشاة إلي القاع في الثري

ومن وصف أولئك المشاة التعسين ورد في القصيدة:

لو تراهم قوافلاً هد من عزمها السري

أو (طوابير) رتبت من أمام ومن ورا

أجهدت منهم المفاصل وأنبتّت العري

والقصيدة كما قلنا طويلة ومن الطريف أن البروفيسور النويهي عندما كتب مقدمة ديوان حرية وجمال الذي صدرت طبعته الأولي في أكتوبر ١٩٥٣ أدهشه هذا الثناء الذي خلعه الشاعر علي المفتش البريطاني في حين أن الديوان كله يقوم علي النضال والقتال وإخراج المستعمرين من السودان لكنه فسر الظاهرة المتناقضة تفسيراً جاء لمصلحة صاحبنا وهو المؤلف حيث قال تدفعه أمانته وصراحته لأن يعترف بأن موظفاً بريطانياً كان أحرص علي مصالح الوطنيين من المجلس البلدي الذي خلفه في وظيفته

والشكر مؤخراً لعبود

وبقي الطريق علي حاله لمدي عشر سنوات أخري حتي جاءت حكومة الرئيس الفريق إبراهيم عبود – رحمه الله – فرصفته بالإسفلت من بحري إلي الجيلي!

الحلقة الثامنه

الأستاذ أونسه بشمبات كان يستنكر اختيار المادة المدرسية التي تتضمن مدح الإنجليز والأستاذ قرة العينين وتهديده بأن يجعلنا أسكت من سمكة علي شاطئ دجلة والفرات إن لم نصمت

اندمج صاحبنا في المدرسة الوسطي بالخرطوم بحري وفي الفصل الأخير عام ١٩٣٨ وتعرف علي أساتذة جدد وطلبة جدد - وكان سعيداً في المدرسة كما هو سعيد في المنزل الجديد بشمبات كما أشار إلي ذلك في الحلقة السابقة بالرغم من معاناة الطريق التي سبق أن أوفاها حقها آنفاً وهو يذكر أن الناظر كان اسمه محمد الأمين مكي وهو اسم معروف لديه لأنه كان أحد ثلاثة من الاساتذة الكبار الذين كانت اسماؤهم مكتوبه في كتب المطالعة - التحفة السودانية - والتي قرأوها في الفصل الأخير في المرحلة الدراسية السابقة وكأن أولهم الشيخ عمر إسحاق وقد زارهم مرة في شندي وهو مفتش تعليم وألقي عليهم درساً فأعجبتهم طريقته في التدريس وسعة صدره في التعامل مع الطلبة غير الأذكياء، حينما يسألهم عما فهموا وما لم يفهموا من الدرس بهدوء وأحياناً بأبتسام. وعلم صاحبنا فيما بعد أنه كان من الشخصيات البارزة في المجتمع السوداني وأنه كان من كبار رجالات الختمية كما كان أحد مستشاري السيد علي الميرغني في الشؤون السياسة والاجتماعية.

سمك دجلة والفرات!

وكان من معلمينا في بحري الوسطي الشيخ إبراهيم عمر قرة العينين وأصوله كما علمت من الجزيرة المناضلة (توتي) التي سيأتي ذكرها لاحقاً في

موضعه التاريخي حسب التسلسل الزمني لهذه الذكريات والانطباعات. كان مولانا الشيخ قرة العينين رجلاً سمحاً هادىء الطبع كثير الدعابة والابتسام تتدلي علي خديه شلوخ بلدية واضحة ومن العجيب أني لم أعرف إلا مؤخراً جداً أنه والد الأخ والزميل قسم الخالق إبراهيم الذي كان من رجال الشرطة البارزين كما عملنا معاً في وزارة الخدمة العامة والإصلاح الإداري في أوائل السبعينيات هو في الجانب الإداري وأنا في جانب الإعلام والعلاقات العامة كما التقيت به علي ندره وهو في أحد فروع العمل القضائي بالعاصمة. ونعود بعد هذا الاستطراد إلي أستاذنا إبراهيم عمر قرة العينين رحمه الله فقد كان عندما يأتي إلي الفصل يجد الجلبة والضوضاء يهددنا قائلاً (أما أن تصمتوا وأما أن أجعلكم أسكت من سمكه علي شاطئ دجلة والفرات)!! ولم ندر إلي اليوم شيئاً عن سكوت السمك في نهر النيل والأنهار الأخري في العالم! وكنا نقول ربما قصد به البعد المكاني فإن السمك هناك مهما صاح وارتفع صوته فلن يصل الي أسماعنا بالطبع هذا إذا كان له حقاً صوت مسموع كأصوات الضفادع علي سبيل المثال!

قال صحابنا: والذكريات كثيراً ما تتداعي وكثيراً ما تلح علي الخاطر وكثيراً ما تتيح لنا فرصاً للتأمل.

قال: فوصلت إلي نتيجة فحواها أن أستاذنا ربما وقف علي هذه الكلمة في نوادر التراث العربي والأدبي فأعجبته وأخذ يرددها حتي حفظناها نحن جميعاً في الفصل وربما في المدرسة كلها وأخذنا نرددها بدورنا!

قال صاحبنا إنّ عمله الصحفي والاعلامي في العلاقات العامة فيما بعد أتاح له فرص التطواف في المنطقة العربية والأوربية وبعض المناطق الأسيوية

أما في العراق وقدكان يزور بغداد صحفياً ثم شاعراً مشاركاً في (المربد) وفي زيارات متتابعة لبغداد وكان يقف علي شط دجلة ويذكر كلمة الأستاذ ووصل مرة إلي الفرات ووقف علي شاطئه وهو يذكر الكلمة فلم يتبين سكوتاً مميزاً للأسماك لا هنا ولا هناك!

والأستاذ أونسه بشمبات

كان الأخ محجوب حضره رحمه الله يستصحب ابن خاله وهو صاحبنا في بعض زياراته لأصدقائه في شمبات ولايزال صاحبنا يذكر تلك الأمسية التي زارا فيها الأستاذ المربي أونسة محمد أونسة في منزله فكان محجوب والأستاذ أونسه رحمهما الله يتحدثان في شؤون السودان والسياسة الاستعمارية علي وجه العموم وكان صاحبنا يصغي إليهما بإحساس عميق لاسيما وأنهما يتناولان ضرباً من الكلام لم يسمع مثله لا في المدرسة ولا خارج المدرسة!

وفجأة سأل الأستاذ صاحبنا عن آخر محفوظة قدمت لهما في السنة الرابعة فأجاب قصيدة من شعر حافظ إبراهيم .. قال الأستاذ أنسة: أقرأ لنا منها شيئاً فأخذ صاحبنا (يُسمّع)

ووالي القوم اتهمو كرام
ميامين النقيبة أين حلوا
لهم ملك علي التامين أضحت
ذراه علي المعالي تستهل
إذا شاورتهم والأمر جد
ظفرت لهم برأي لايفل
وأن ناديتهم لباك منهم
أساطيل وأسياف تسل

صفق الأستاذ بيديه عجباً وقال لمحجوب: تصور... لا يجدون في شعر حافظ إلا هذه الأبيات التي مجد فيها الإنجليز المستعمرين الظالمين مع أن حافظ هو شاعر الشعب المصري وليس شاعر الحكومات أوالاستعماريين!.

عاد صاحبنا إلي المنزل مع أخيه محجوب وقد أودعت كلمات الأستاذ أونسه في صدره وفي وجدانه شحنات ساخنة من الإحساس الوطني وتركته منذ تلك الأمسية يفكر فيما يقرأ ويسمع بمقياس جديد.. وأعادت له ذاكرته ما قرأه قبل أربع سنوات في مدرسة شندي الأولية في كتاب المطالعة عن اللورد كتشنر وتذكر الكلمات بالنص عن كتشنر وقد ورد فيها: (هو البطل العظيم الذي فتح السودان ووضع فيه أساس الحضارة والعمران)!!

وهي كلمات مرت عليه يومها دون أن يتأملها أو يتوقف عندها الا أنها بعد تلك الأمسيات التي سبقت الإشارة إليها في شمبات وعقب حديث الأستاذ أونسه لم تعد تمس شغاف قلبه الا بالإزدراء والاحتقار للغاصبين!

ولكن هناك نقطة شديدة الأهمية هي أننا لايمكن أن نقيس الأمور بمقياس واحد في الفترات السابقة والأخري اللاحقة فسلطان الاستعمار كان يبسط ظله علي الدنيا كلها وكان الذين هم علي قدر من التعليم والوعي يستعان بهم في التعليم وفي كافة وظائف الدولة وليس في إمكانهم أن يغضبوا السلطان ولذلك فهم يتفاوتون في الاستجابة لما يفرضه عليهم رغبة أو رهبة وفي ظروف اضطرارية!!

حافظ وشوقي

كان حافظ وشوقي نجمين متألقين ليس في سماء مصر فحسب وإنما في سماء الأمة العربية كلها بما فيها السودان لم يكن حافظ علي علاقة بالإنجليز

ولا بالخديويين وإنما كان أصرح معبر عن ضمير الشعب المصري إلا أن أبيات قصيدته التي أوردناها في هذه الكلمة لابد أن ظروفاً ما قد أملت عليه كتابتها فأخذت عليه وربما كان لوجوده في السودان وهو ضابط في الجيش المصري قبل أحداث ١٩٢٤ وإجلاء ذلك الجيش عن السودان وما فرض عل الحكومة المصرية من عقوبات آنذاك وغير ذلك من الضغوط التي تأثر بها الملك فؤاد والصحافة المصرية وبالتالي الرأي العام في مصر ربما كانت لها بعض المؤثرات في كتابة تلك القصيدة!

أما شوقي لهو مختلف تماماً عن حافظ فهو قد نشأ في رحاب القصور الملكية وامتدح الخديويين آل محمد علي باشا وإسماعيل باشا وابنه الخديوي توفيق الذي بعث بشوقي إلي فرنسا فتخرج في السوربون وعاد ليعمل في القصر وكانت دراسته في القانون، إلا أن موقفه مع آل محمد علي حتي في الظروف التي تتأزم فيها العلاقات بينهم وبين الإنجليز فهوكان يقف مع الخديويين بكل شجاعة مما دفع ثمنه نفياً في إسبانيا أو الأندلس كما كان يحلو له أن يشير إليها في إشعاره إحياء لذكري الدولة الأموية في الأندلس غرب أوربا!!

ومع أن شوقي أصوله كما يقولون من الشراكسة إلا أنه التزم بجنسيته المصرية، وانتمائه العربي والإسلامي وكتب في هذا المعني أروع ما كتبه شعراء القرن العشرين وقد بويع بإمارة الشعر للأمة العربية كلها!!

شوقي والخديويون

ربما يتساءل القارئ وما علاقة شوقي بالأسرة الخديوية المالكة؟ المدخل لتلك العلاقة كان بسيطاً جداً فجدة شوقي كانت (وصيفة في القصر) وكانت تحب

حفيدها وتصحبه معها داخل القصر وخارج القصر وقد كتب زكي مبارك في أواخر الثلاثينيات أو أوائل الأربعينيات مما قرأه صاحبنا قصة طريفة عن طفولة شوقي ورد فيها.. كان شوقي ينظر بعينين صاعدتين إلي أعلي بصورة دائمة ولايتجه بصره إلي أسفل أو إلي الأرض فأهتم الخديوي توفيق باشا إلي هذه الظاهرة العجيبة وفي أحد الأيام وقد رآه مع جدته علي ذلك النحو في القصر فاتجه إلي خزانته ففتحها وأخرج منها قطعاً من الجنيهات الذهبية ثم نثرها علي الأرض فأدهشت شوقي وصوب نظره نحوها ثم جلس فجمعها ومنذ تلك اللحظة عادت عيناه إلي الوضع الطبيعي الأمر الذي أدهش الجدة لكن الخديوي توفيق ضحك وقال لها:

هذا هو دواء هاتين العينين العليلتين! فعقبت جدة شوقي ولكنه دواء لايوجد إلا في صيدلية الخديوي!

قال صاحبنا كنت أحب شعر شوقي العربي والإسلامي وهو يخاطب الخلافة الإسلامية وهو يتحدث عن أمجادها وهو يتغني بالحجاز والعراق ودمشق وبيروت وهو يذكر روابط السودان ومصر كل ذلك في أداء نادر من حيث الفخامة اللفظية والمعاني الرائعة والموسيقي التي تسمو أجراسها إلي درجة لا يماثلها شعر آخر في زمانه ولكن شوقي تأثر بالرغم من ذلك كله بارتباطه بآل محمد علي باشا وقد رد علي نقاده بقصيدة رائعة قال فيها:

أأخون إسماعيل في أبنائه ولقد ولدت بباب إسماعيلا؟

وقد دافع عنه الدكتور محمد حسنين هيكل - بخلاف هيكل الصحفي المعاصر باعتبار أن موالاته للخديويين لها دوافعها وكان الدكتور هيكل من عمالقة الفكر والسياسة والصحافة وكان يرأس صحيفة مميزة اسمها

(السياسة) كنا نقرأها في السودان. إلا أن الدكتور هيكل تألق نجمه حينما اهتم بالدراسات الإسلامية مؤخراً وألف كتابه الرائد في الثلاثينيات (حياة محمد) الذي كان الأول من نوعه والرائد في كتابة السيرة النبوية بصورة حديثة قال صاحبنا ولا أنسي أنني بعثت إلي الناشر في القاهرة بثلاثين قرشاً ثم بضعة قروش تكاليف إرساله للسودان بالبريد استهوتني قراءته بحجمه الكبير وهويسرد لنا ميلاد سيدنا محمد (صلي الله لعيه وسلم) حتي وفاته ومواقفه مع قريش من البداية حتي النهاية وهجرته إلي المدينة ومعاركه الظافرة التي بدأت ببدر وانتهت بفتح مكة في العام الثامن للهجرة وما كتبه المستشرقون الصادقون منهم والمنافقون وما وجهه إليهم من شرح أو نقد أو إشادة كل حسبما ورد في كتابه فكان (حياة محمد) فتحاً جديداً في العالم العربي والإسلامي وقد كتب بأسلوب صحفي سهل التذوق والتفهم ثم أنه جمع بين التاريخ والثقافة والانتصارات الإسلامية في السياسة والحروب والدبلوماسية والانفتاح العالمي!

عزيزي القارئ!

أبعدتنا هذه الأحداث عن تحرك صاحبنا المدرسي ولكنها كانت من نتاج تلك الفترة نفسها فهو التلميذ الذي كان يقرأ كل هذه الملعومات ويبعث إلي مصر ثمن الكتاب ليرسل إليه بالبريد! أنها مبادرات أجيال لها سوابقها وهمومها واهتماماتها منذ نعومة أظفارها!!!

أننا بمفهوم هذا العصر قد نندهش لحدوثها وقد لانصدقها ولكنها والله هي الحقيقة ولاشئ غيرها.. فإلي لقاء لنواصل الروائع الثقافية التي تفتحت عليها أعيننا ووعتها عقولنا فأنشغلنا بها في حب واستمتاع ولم ننشغل بغيرها من تفاهات الحياة اليومية فإلي لقاء.

الحلقة التاسعة

حاج الصديق حضره بشمبات ومخطوطته التاريخية التي رجع إليها المؤلفون أجانب وسودانيون

هل للظاهرة الشريرة المسماة «بالعمل» في السودان علاقة (بشر النفاثات في العقد)

إنها نهاية المرحلة في عام ١٩٣٨ في مدرسة الخرطوم بحري الوسطي ثم مغادرة شمبات بعد مضي عام حافل بالأحداث والذكريات والانطباعات وقد سبقتها أعوام ثلاثة في أمدرمان الأميرية الوسطي تناولها صاحبنا فيما سبق أن أوردنا عمومياً أحياناً وتفصيلياً أحياناً أخري.

ولكن وقبل مغادرة شمبات فهناك انطباعات قوية تفرض التسجيل والتأمل منها أن حاج الصديق حضره جد ابن العمة محجوب حضره يعتبر رجلاً سبق زمانه وأوانه كما يقولون فهو قد سافر إلي مصر للدراسة في الأزهر الشريف وأقام فترة في مصر وكان معروفاً بين زملائه الطلبة من السودانيين والمصريين والعرب الآخرين واشتهر بأنه يعالج بالآيات القرآنية وبالطب النبوي. وفي الروايات الشفاهية أن إحدي البنات في الأسرة الخدوية أصيبت بمرض عصبي أو نفسي وفشل الأطباء في علاجها وسرعان ما انتقل خبر هذا الطالب السوداني (البركة) إلي القصر، فأتي بالحاج الصديق حضره الطالب بالأزهر لمعالجتها فأفلح في علاجها بسرعة فائقة..

مخطوطة الصديق حضره

وعاد حاج الصديق حضره إلي السودان وأقام في شمبات وكانت له صلة وثيقة بالبيت الميرغني قبل السيد علي الميرغني لأن تاريخ وجوده متقدم قال البعض إنه صحب السيد الحسن الميرغني جد السيد علي الميرغني وقال آخرون

أنه صحب ابنه السيد محمد عثمان الأقرب أو الأصغر والد السيد علي الميرغني وهم يصفونه بالأقرب أو الأصغر لأنه حمل اسم جده الإمام الختم السيد محمد عثمان الميرغني منشئ الطريقة الختمية وهو شريف من آل البيت النبوي وقدم من الحجاز إلي السودان في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي وبرجوعنا إلي موسوعة د. عون الشريف قاسم الجزء السادس كلمة (ميرغني) اتضح لنا أن حاج الصديق جاء بعد السيد الحسن الذي ولد عام ١٢٣٥هـ وتوفي ١٢٨٦هـ وهو من أشد أبناء الختم شهرة.

ونعود إلي مخطوطة حاج الصديق بعد هذه الاستطرادة الضرورية تاريخياً فهو قد وضع كتاباً اسمه (حسن المسايرة والأرب في معرفة أصول وأنساب قبائل العرب) وفرغ من تأليفه سنة ١٣٢٤هـ أي قبل ثلاث سنوات بعد المائة تقريباً من التاريخ الهجري الحالي وقد اهتمت دار الوثائق في السودان وهي في مراحل شبابها بقيادة العالم المؤرخ أبو سليم بتصويرها وضمها إلي وثائقها النادرة ورجع إليها الكثيرون!

وفي الواقع أن حاج الصديق حضره لم يسجل أنساب وقبائل العرب فحسب وإنما العديد من سلالاتهم التي عرفت في السودان فكان هذا العمل يعني الثقافة متقدمة إلي أقصي حد ولكن الأمر الذي حال دون معرفة هذه المخطوطة لدي المثقف السوداني ناهيك بالعربي هو أنها لم تطبع حتي اليوم ولكن وبالرغم من ذلك فإن بعض الاداريين البريطانيين السابقين من ذوي الاهتمام بالكتابات التاريخية والاجتماعية - والثقافية قد وقفوا عليها واستعانوا بها وهم يكتبون عن السودان من واقع وجودهم وتعايشهم مع الشعب السوداني وفي مقدمة هؤلاء (ما كمايكل) المشهور وصاحب كتاب (تاريخ العرب في السودان).

وقد ألمح صديقنا وأستاذنا العلامة البروفيسور د. عون الشريف قاسم إلي أسماء هؤلاء في كتابه (حلفاية الملوك التاريخ والبشر) فقد أشار إلي (أركل) في كتابه: تاريخ السودان القديم وإلي (هولت) في كتابه تاريخ السودان الحديث و (كروفورد) في كتابه (مملكة الفونج) وغيرهم من الأوروبيين الرحالة الذين زاروا السودان وكتبوا عنه في كتبهم ومذكراتهم!

وقد تحدثت مخطوطة حاج الصديق عن مملكة الفونج وعن زيارة الإمام الختم السيد محمد عثمان الميرغني لملوكها في سنار سنة ١٨١٧م وفق مقتضيات الأسلوب الحضاري المتمثل في ضرورة مقابلة الزائر الأجنبي لحكام البلد وتقديم نفسه وهدف زيارته لاسيما وأن أهدافه كانت دينية إسلامية وذات ارتباط بالنهج الصوفي بعيداً عن السلطة أو التجارة أو المال ومثل هذه الزيارات يقوم بها بالطبع الأشخاص البارزون للاطمئنان إليهم منذ البداية قال صاحبنا: وقد رأيت المخطوطة وهي مصورة في كتاب ضخم عند الابن محمد محجوب حضره الذي كان عقيداً في القوات المسلحة وأحيل علي التقاعد بناء علي رغبته في عام ١٩٧٦م كما وجدت صورة وثائقية تتضمن رسالة من الإمام المهدي إلي حاج الصديق حضره وأخوانه أبناء أحمد حضره تلومهم علي عدم الحضور لمبايعته وقد ورد فيها ما يفيد التحذير والإنذار إن لم يفعلوا وتاريخ الرسالة ٢١ ربيع الأول سنة ١٣٠١هـ لقد احتفظ حضره بهذه الوثيقة التاريخية إلي جانب مخطوطة جده.

ومحمد محجوب يسلك الآن مسلك جده حاج الصديق في التأليف فقد صدرت له حتي الآن ثلاثة كتب في منهج آخر هي: القوات السودانية ما بين حرب الكونغو والأمم المتحدة وما بين الحركة الصهيونية والماسونية وأحدثها (ما

بين الصهيونية والأديان) الذي صدر هذا الأيام عن فرع البحوث بالمطبعة العسكرية .

الخليفة عثمان حضرة

إنه ابن حاج الصديق وأخذ علي أبيه دراسة الفقه والتصوف والولاء الختمي الميرغني كما أخذ عنه المعالجة بالآيات القرآنية والطب النبوي، قال صاحبنا لقد أتاحت له فرصة إقامته مع الأسرة في شمبات في أواخر الثلاثينيات وزياراته المتكررة لها فيما بعد أن يسأله عن الكثير ويستمع إلي الكثير قال وحسب القارئ أن أقص عليه هذه الحكاية المدهشة العجيبة التي رآها بعيني رأسه كما رآها معه محمد محجوب وكان يافعاً.

دخان البخور يدور!

قال صاحبنا كنت أجلس إلي جانب الخليفة عثمان في خلوته وحوله كتبه وهوممسك بمسبحته فإذا بامرأتين تزورانه ذات صباح وهما قادمتان من الخرطوم، تسلمان وتجلسان ثم تحكيان عن أخيهما المريض بمستشفي النهر (الآن وزارة الصحة) أنه مريض وفي حالة حيّرت الأطباء يشكو من النار في بدنه والطعنات الحادة المتنقلة في جسمه وتفصّلان شكوي أخيهما وأعينهما تفيض بالدموع.. أنا أنظر والابن محمد محجوب ينظر وبعد فترة طلب الخليفة ابنه الصديق المسمي علي جده وخاطبه: خذ هذا وضع عليه الجمر وأعده، ثم وضع علي الجمر مواداً مختلفة منها المسك واللبان، ثم قال لابنه الصديق أجلس في الحوش وعندما يدور الدخان في مكان محدد عد وأبلغني وبعد فترة ليست بالطويلة جاء الصديق ليعلن لأبيه أن الدخان يدور في دائرة ضيقة في الحوش!!

أخذ الأب (عتلة) مستطيلة في شكل العمود إلا أنها في النهاية تأخذ طابع

العرض ويظهر منها ما يشابه شكل الطورية الحادة ثم قال لابنه: أحفر الأرض في المكان الذي يدور فوقه الدخان ثم عد وأخبرني أو أحضر ما تجده.

كنا مندهشين أنا وابن أخي الصغير محمد محجوب والمرأتان وبعد فترة جاء حاج الصديق الابن وهو يحمل لأبيه علبه مستطيلة كانت في ذلك الزمان تعبأ فيها خمسون سجارة من البحاري المعروف آنذاك وسلمها لأبيه؟

فتح الأب العلبة وأخرج منها ظرف رصاص متفجر من الحديد ودبابيس وقطعة قماش أبيض خفيفة وريشة كتابة!

تهلل وجه الخليفة الشيخ عثمان بعد أن أخرج هذه الأشياء من العلبة ثم بدأ يخاطب المرأتين وهو مبتسم وسعيد بتلك النتيجة قال:

الحمد لله أنه (عمل) شرير وضعه أشرار قطعة الرصاص تشير إلي النيران التي كان يشكو منها المريض والدبابيس هي الطعنات المتنقلة في جسمه وقطعة القماش الخفيف أخذت من عمامته دون أن يشعر أو يشهد والريشة لكيلا يستطيع الكتابة فيما بعد؟

ثم سأل المرأتين: هل كل أخوهما يعمل في وظيفة كتابية؟ فأجابتا نعم ثم قال لهما الحمد لله أنه منذ هذه اللحظة لن يشعر بأي ألم ولو كان معنا الآن لشهدتما حالته علي الفور وأضاف أنظروا إلي هذه العلبة وقد التصق بها تراب رملي أصفر أو أحمر اللون لايشبه تراب الأرض التي نزعت منها الآن العلبة فالتراب عندنا هنا طيني أسود لأنها أرض زراعية أما هذه العلبة أغلب الظن قد دفنت في منطقة مقابر عند تلال رملية أي أن المريض يجب أن ينقل إلي المقابر!!

ابتهجت المرأتان وسرتا سروراً بالغاً لثقتهما في كلام الشيخ وخرجتا علي الفور وفي المساء جاء رسول منهما ليخبر الشيخ أنهما وجدتا أخاهما كما قال

وكأنه لم يكن يشكو من مرض علي الإطلاق.. ومنذ تلك اللحظة أخرج أخوهما من المستشفي!!

أشياء وراء الطبيعة!!

قال صاحبنا في تلك الفترة الباكرة من عمري كنت مندهشاً حقاً ولكنني لا أستطيع أن أكذب شيئاً رأيته بعيني وبعد مرور الأعوام والأعوام وقراءتي في كتب السيرة النبوية توقفت عند سورة الفلق (ومن شر النفاثات في العقد) وألمت بما حدث للنبي صلي الله عليه وسلم حين أوحي إليه فأحضر أصحابه خيطاً أو قماشاً به عقد فكان كلما قرأ السورة انفكت واحدة تلو الأخري وكان الخيط قد رمي في بئر مهجورة وكانت النهاية أن نهض الرسول صلوات الله عليه وسلامه بصحة وعافية وقال (فكأنما نشطت من عقال بعير) أليس هو العمل بعينه؟

وسمعت العالم المصري الشهير الشيخ الشعراوي رحمه الله يتحدث في التلفزيون عن الإسراء والمعراج وما حدث في ليلة أو بعض ليلة فرد علي هذه الظاهرة العجيبة بقوله أن لله نواميس وقوانين ليست كالتي عندنا إنها أشياء غير مرتبطة بطبيعة ما نعرف ونشاهد ونقيس إنها أشياء وراء الطبيعة إذن فالمسألة كلها يمكن أن تندرج في هذه الظواهر غير الطبيعية ولكن ومع ذلك فهناك المشعوذون والدجالون والغشاشون الذين يحاولون الانخراط في ممارسات معينة أمثال عباد الله الصالحين والصادقين ولكن هيهات هيهات!

قال صاحبنا: إنها مشاهد وقفت عليها وكنت قرأتها قديماً أو حديثاً ولكني والحمد لله قادر علي أن أفرق بين الصالح والطالح والصادق والكاذب وما أكثر ما في الحياة من المتناقضات!!

قال صاحبنا: كانت فترة شمبات تشكل في ثقافته تلاقحاً فكرياً عظيماً في المجلات الأدبية التي كان يحرص علي اقتنائها والمجلات المصورة ذات الطابع السياسي التي كان يحضرها الأخ محجوب والزيارات التي كان يصحبه فيها كزيارتهما للأستاذ أونسة التي سبقت الإشارة إليها وخلافها قال كانت هذه كلها روافد تثري فكره وتطور إدراكه وتمده مرة بعد أخري بمفهوم جديد وفي بحري الوسطي كان الأستاذ خوجلي عثمان ولعله كان الشاب الوحيد بين أساتذة المدرسة الشيوخ حريصاً علي الالتصاق بالتلاميذ يصحبهم في الزيارات المدرسية للمرافق العامة بالمنطقة ويشجعهم علي تقديم محاضرات عما يقرأون في بعض الأوقات في العصر أو المساء كما كان يرفع الكلفة بينه وبينهم فتتصل المداعبات البريئة بين الجانبين هذا وقد شعر صاحبنا بأن شخصية الأستاذ خوجلي في مدرسة الخرطوم بحري أصبحت تشكل له امتداداً لشخصيات الأستاذ عبد العزيز عمر الأمين والأستاذ تلودي والأستاذ بشري عبد الرحمن المقبول في الأميرية الوسطي بأم درمان.

أما زملاؤه الذين كان يحضر معهم من شمبات إلي المدرسة في بحري فقد كان أقربهم إليه صديقه عبد الرحمن الشيخ ثم حسن الطاهر فيما بعد وعرف من الطلبة المقيمين في بحري إبراهيم علي النمر وصلاح غندور ويوسف حسين وجلي حامد وعبد المنعم حمدي وعبد المنعم عباس وعبد القادر قناوي وسعد حلمي الاسكندراني ومحي الدين حامد ويوسف الملك عدلان وكثيرون غيرهم وكان يأتي من الحلفاية عثمان علي النو لقد رحل بعضهم إلي رحاب الله في أعمار مبكرة في مرحلة الشباب أو بعدها مباشرة وعاش بعضهم ليشغل وظائف سياسية وتنفيذية مهمة في الطب والإدارة في مختلف جوانبها وكذلك في

الوظائف التعليمية والتربوية العليا رحم الله الأساتذة ورحم الله الزملاء وأسكنهم فسيح جناته ومتع من بقي بالصحة والعافية.

وتشاء الظروف أن تجعل صاحبنا يقيم مؤخراً في الخرطوم بحري وأن يلتقي بالزملاء القدامي من سكانها في أحياء حلة خوجلي وحلة حمد والأملاك غرب وأحياناً في منازل تكاد تكون متجاورة مما أخذ يتيح لهم وقفات وأحاديث فكهة مع بعضهم عن تلك الذكريات ثم جاء مطلع عام ١٩٣٩م لكي يحصل طلاب التعليم الأوسط علي شهادات تلك المرحلة التي تؤهلهم لدخول كلية غوردون ولم يكن صاحبنا يخشي ألا يحصل علي تلك الشهادة كما كان يثق في نفسه وكما كان يعرفه زملاؤه سواء أولئك الذين غادرهم في أمدرمان أو هؤلاء الذي أكمل المرحلة معهم في الخرطوم بحري ولكنه كان يعاني من شد وجذب متناقضين وهما رغبته في مواصلة الدراسة من ناحية وظروفه العائلية الصعبة التي تدعوه لأن يبدأ حياة العمل من ناحية أخري إلا أن الثانية هي التي انتصرت مخلفة في نفسه بعض عوامل الحزن والمرارة ومضت السنتان ١٩٣٩م و ١٩٤٠م وهو لايجد من العمل الذي يرضي طموحه ولو إلي حد ما فكان (يتمسك) كما يقولون بأعمال خفيفة هنا أو هناك من شأنها أن تتيح له بعض (المصاريف) ولكن عام ١٩٤١م شهد الخطوة الأولي لصاحبنا في ميدان العمل المقبول ولو إلي حد ما كذلك فأين كان وما هو؟

الحلقة العاشرة

رحلة في عالم صمويل مورس وإبداعه العبقري (التلغراف) ولغته النقطة و(الشرطة)

الأتراك خلفوا عندنا كلمة خانه بمعني مكانه كالتعليم خانة والاجزخانة والشفخانة

ألمح صاحبنا في الكلمة الماضية إلي أن أسم المربي المتميز حسن الظاهر رحمه الله (أبو البنات) وأشار إليها للتذكير المح إلي أن اسم حسن الظاهر سيعود مرة ثانية وثالثة في هذه الذكريات مرتبطاً بمصير تلميذه الذي كان يحمل همومه ويعطف عليه لمجرد أنه في نظره ولد (جاد)!

لقد عرف حضرة الناظر أن تلميذه القديم لم يشأ مواصلة الدراسة وأنه يرغب في العمل تحت ظروف عائلية قاسية فبعث إليه رسولاً يخطره بأنه يمكن أن يبعث به إلي بخت الرضا في فترة تدريبية قصيرة ليشغل وظيفة معلم بالمدارس الأولية وكان الناظر آنذاك في سنة ١٩٤١م موظفاً كبيراً (بمصلحة) المعارف ومن جانب آخر فإن صاحبنا كان قد حدد له مع آخرين موعداً لإجراء معاينة لهم في رئاسة مصلحة البريد والبرق ليعين من يجتازون المعاينة بنجاح موظفين في تلك المصلحة فأصبح أمامه خياران لا بأس بهما إلا أن بعض أصحابه من الشباب حسنوا له وظيفة (فنية) والمقبولون لها من الناجحين تصرف لهم مرتبات علي الفور وهم تلاميذ يدرسون فن التلغراف!

بين الخوجة الأفندي!

وقلل بعض ناصحية من شأن وظيفة المعلم بالمدرسة الأولية وقال له بعض

آخر ساخراً أتريد أن تصبح (خوجة) وترتدي الفرجية وقفطان الشاهية وتربط علي بطنك حزاماً - كان هذا زي الشيخ في المدارس الوسطي وكلية غوردون أما الشباب فكانوا يلبسون الزي الافرنجي إلا أن معلمي المدارس الأولية كانوا كلهم يلبسون الفرجيات والعمائم أو الطربوش المغربي كما كان يسمي وإلي هذا الزي يشير ذلك الصديق الساخر الخبيث كما كان يشار إلي المعلم بلفظة (خوجة) التركية الأصل كان صاحبنا ميالا حقاً إلي وظيفة لمعلم إلا أن المقدر يكون!

المفتش البريطاني: مبروك

ذهب صاحبنا مع آخرين دعوا للمعاينة إلي رئاسة مصلحة البريد والبرق حيث وجدوا لجنة يرأسها مفتش بريطاني كالعادة في جميع مرافق الدولة آنذاك فقدم له سؤالين يبدو أن إجابته عليهما قد أعجبته باللغة الإنجليزية طبعاً فبدأ علي وجه (جناب المفتش) الارتياح فقال له بالعربية (مبروك)!

وفي اليوم التالي أتي المقبولون ويمكن أن تقول المحظوظون وهم حوالي العشرين ليوقعوا علي عقد العمل وهو يتضمن: فترة الدراسة النظرية ثم المرحلة التطبيقية وأخيراً شهادة التأهيل ويتلخص ذلك في أن التلميذ سيبقي بمدرسة البريد والبرق لمدة عام لتلقي الدراسة في التلغراف ثم عاماً آخر في المكاتب في أقسام التلغراف يلي ذلك التدريب المباشر علي أعمال البريد لبضعة أشهر.

ومن الناحية المادية فإنه سيتقاضي راتباً شهرياً قدره ثلاثة جنيهات ونصف الجنيه أما بعد انقضاء العام الأول ومغادرة المدرسة للعمل الميداني فسيرتفع راتبه إلي أربعة جنيهات ونصف الجنيه ثم يحصل بعد ذلك علي علاوة سنوية مقدارها خمسون قرشاً ولكن كل ذلك يتم بعد انقضاء فترة التدريب العملي في عمل التلغراف وعمل البريد معاً وبعد أن يحصل علي شهادة التأهيل كما كانوا يسمونها!

ارتاح صاحبنا لكلمات دراسة ومدرسة وتأهيل في بداية تلك المرحلة وكان يظن أن علاقته بهذه الكلمات التي يحبها قد ذهبت إلي غبر رجعة ولكن شتان بين دراسة كان يمني نفسه بها ودراسة أخري فرضتها عليه الظروف!

رفع الروح المعنوية

لم يكن صاحبنا سعيداً بالمصير الذي انتهي إليه ولاحظ القريبون منه ما في نفسه من أسي مكبوت فأخذ يتلقي التهاني من بعض أقاربه وأصحابه وقال له بعضهم من الموظفين من أهله ربما كان حظكم أحسن من زملائكم الذين ذهبوا إلي كلية غوردون فأنتم تبدأون منذ الآن براتب شهري مناسب وبعد مضي أربع سنوات تصل رواتبكم إلي مبلغ ستة جنيهات ونصف وهوالمرتب الذي سيناله أولئك الزملاء بعد حرمان دام لمدي أربعة سنوات هي فترة الدراسة في الكلية! وفهم صاحبنا أن هذه الكلمات تشير إلي محاولة رفع روحه المعنوية ورد عليه بقوله: لكنهم يحصلون علي التعليم الذي هو أغلي من الفلوس!!

وللحقيقة نقول إن وظيفة البريد والبرق في تلك الفترة كانت أفضل الوظائف بعد وظيفة كلية غوردوين بأستثناء وظائف القضاء الشرعي والمهندسين وما شاكلها أما معلمو الأوليات الذين يتخرجون في قسم العرفاء ووظائف المحاسبين والكتبة فهي مماثلة لوظيفة البريد والبرق وربما كانت الأخيرة خاصة قسم التلغراف أسرع في الترقيات والعلاوات عدا ما يحيط بها من هالة (الفنية) المزعومة!

حديث النفس!

قال صاحبنا وهو يتحدث مع نفسه: لم يبق أمامك إلا أن توطد النفس وتشدد العزم علي خوض هذه التجربة بشجاعة علي ألا تكون هذه الوظيفة هي غايتك فطموحك أبعد منها بكثير عليك أن تقرأ وتدرس وتتصل بكل مجالات

الثقافة بعد أن حرمت من الدراسة الأكاديمية فعسي أن تعوض والحياة لا تعرف المستحيل إذا كان الإنسان (جاداً) هل تذكر هذه الكلمة الأخيرة؟ لقد وصفك بها استاذك (حضرة الناظر) ذلك الرجل الكريم الذي كان مهتماً بأمرك نعم يجب عليك أن تكون جاداً في سعيك نحو تثقيف نفسك إن وظيفة البريد والبرق قد تأخذ الكثير من وقتك ولكنها لن تحول دونك ودون القراءة بل أنها ستمكنك من الحصول علي القرش الذي ستصرف منه علي نفسك وعلي أسرتك الصغيرة التي انحصرت مؤخراً في الأم وحدها كما يمكن أن تشتري الكتب في الأدب والتاريخ والسياسة إلي جانب المجلات الثقافية التي تصدر في مصر وبعض العواصم العربية!

هكذا كان صاحبنا يحدث نفسه وكان رخص السعر أو الثمن في تكاليف الحياة يمكّنه من تحقيق كل ذلك حتي براتب تلك الوظيفة علي صغره! ولماذا لا فقد كان بعض الناس يعملون بأقل من جنيهين فقط ولهم زوجات وأسر في ذلك الزمان الأسطوري العجيب!

التعليم خانة!!

هكذا كان يسميها العامة وهي مكان التعليم أو المدرسة لأن خان وخانة بالتركية يعني المكان وكانت الفنادق التي ينزل فيها المسافرون خارج السودان تسمي النزل وقد انتقلت الكلمة في العصر التركي إلي بلادنا ولكن في حدود وبقيت الكلمة التركية في بعض كلماتنا إلي حين مثل الأجزخانة، والكتب خانة، والأدبخانة بمعني أماكن الشفاء أو الدواء والمكتبات وبيت الأدب أما أسم المدرسة الرسمي فهو مدرسة البريد والبرق وكان موقعها في الزاوية الجنوبية الغربية من مباني وزارة المالية الحالية وكانت يومها وزارة الداخلية أخطر الوزارات وأهمها في العهد الاستعماري وهي عرين السكرتير الإداري.

وإذا تأملنا أسم المدرسة (البريد والبرق) فالبريد معروف وفصيح وقديم في أصل اللغة العربية إلا أن كلمة البرق فيما يبدو فهي مستحدثة علي فصاحتها ويبدو أنها اختيرت لتشبيه سرعة التلغراف بسرعة البرق وإيماضه السريع!!

أما التلغراف كما هومعروف فكلمة إنجليزية حولت حروفها إلي العربية ومكتشف آلة التلغراف المكونة من جهازي الإرسال والاستقبال والأسلاك الفضائية الموصلة فيما بينهما فهو صموئيل مورس الأمريكي ولد سنة ١٧٩١م وتوفي سنة ١٨٧٢م وهو مصور كما هو فيزيائي أي جمع بين الفن والعلم في آن واحد وهو واضع أبجدية الحروف التلغرافية المتمثلة في النقطة والشرطة التي تنتقل من مكتب الإرسال إلي مكتب الإستقبال فيحولها المتلقي إلي حروف وكلمات فرسالة مكتملة المعني وكل حرف له صوته الخاص به وقد عرفت هذه الأصوات المكونه من النقطة والشرطة بأسم (مورس كود) أي شفرة مورس والحقيقة أنها تختلف عن الشفرة التي هي عبارة عن حروف وأرقام أو مصطلحات معينة متفق عليها إذ يحضر متلقي رسالة الشفرة المفتاح السري المحفوظ لديه ثم يبدأ في حل رموز الشفرة بعد عمليات معقدة قد تأخذ بعض الوقت ولكن شفرة مورس علي خلاف ذلك فهي لدي الذي درسها لغة واضحة وسليمة لا تحتاج إلي مفتاح سري ولا وقت للتحليل فعندما يضرب صاحب جهاز الإرسال (المفتاح) كلمة صباح الخير من القاهرة لزميلة صاحب جهاز الاستقبال (الساوندر) الخرطوم فأنه يسمعه في اللحظة ذاتها ويرد عليها ربما في دقيقة واحدة سواء كانت التحايا المتبادلة باللغة العربية أو الإنجليزية المستعملتين في بلادنا!!

وفي لغة مورس إن صح التعبير كل دقائق الكلمة والحرف: النقطة، الشرطة، الشولة، علامة الاستفهام، علامة التعجب، حتي علامة الضحك فهي في الواقع لغة مكتملة يفهمها المتخاطبون علي بعد المسافة بكل يسر ووضوح.

ومع ذلك فإن التلغراف المفتوح تختلف إشارته عن التلغراف الذي أعد بحروف أو أرقام الشفرة، فالأخير يصل إلي الجهة المسئولة، وهو عبارة عن حروف وأرقام لايفهم مدلولها إلا من بعثت إليه لأنه لديه المفتاح السري للشفرة وقد علمنا مؤخراً أن الشفرة قد تصل في عبارة مفتوحة في الأخبار أو المعلومات التي تسمع في الإذاعات إلا أن الجهة المختصة المرسلة إليها ستفهم المقصود منها بخلاف ما يفهمة الآخرون!!

التعليم خانة وأساتذتنا الجدد

إنهم ثلاثة: الرئيس أو (السينير) بالإنجليزية سليمان حسين ونائبه السيد البكري أبو حراز والثالث سعيد عبد المجيد وتتكون التعليم خانه من حجرة هي مكتب الأساتذة وقاعة مستطيلة صفت عليها المناضد التي ركبت فوقها أجهزة الإرسال (المفاتيح) و (الساوندرات) وهي أجهزة الاستقبال وتربط بينهما أسلاك وظيفتها نقل الحروف والكلمات في شكل نقط وشرط بين المرسل والمتلقي وكأنما يتصل أحدهما من بلد بزميله في بلد آخر في حين أنه تضمهما قاعة واحدة في مبني وزارة المالية الحالية!

تحدث إلينا الأستاذ السيد البكري أبو حراز قائلاً إننا سنتعلم عمل التلغراف في مدي عام بأستثناء البعض الذي سيتخلف لمدي شهرين أو ثلاثة أشهر بعد الفترة المقررة لأسباب مختلفة وتمني لنا أن نوفق جميعاً لاجتياز الامتحان في الفترة المقررة.

ثم بدأ سعيد عبد المجيد يملي علينا أبجدية (مورس) الألف نقطة وشرطة الباء شرطة وثلاث نقط التاء شرطة واحدة إلي النهاية ثم بدأ يرسل أصوات الحروف بالمفتاح وأخذت أجهزة الاستقبال (الساوندرات) تردد في لحظة واحدة ما يصدر عن جهاز الإرسال الذي كان يمسك به سعيد عبد المجيد وهو يقول هذا (ألف)، وهذه (باء) وتلك (تاء) وتتابعت الأسابيع والاستاذ سعيد يجمع الحروف لتصبح كلمات والكلمات لتصبح جملاً مفيدة كما يقول علماء اللغة ثم تنتقل التجربة من مستوي الأستاذ لمستوي أحد التلاميذ فيمسك أحدهم بالمفتاح وينصت الآخر للساوندر فيكتب في وضع يشبه درس الإملاء واحد يملي والثاني يكتب ولم يكن الاستقبال صعباً كالإرسال فالأخير يعني السيطرة الدقيقة للغاية علي الضربات التي يرسلها المفتاح لأن أية زيادة أو نقصان في الشرط أو النقط من شأنها أن تغير من الكلمة المطلوبة فالمعني المراد في الجملة أو إلي تطور غير مفهوم وكثيراً ما يتعثر ضبط النقط بصفة خاصة إذ تزيد أحياناً أو تنقص أحياناً أخري لأن النقطة صغيرة بطبيعتها كما في الحجم الكتابي وهي كذلك في صوت حروف (مورس) كان الدرارسون أو المتدربون يعانون من هذه الكلمة معاناة عظيمة حتي تتعود أناملهم علي السيطرة علي علامات مورس مثلما يسيطر الفم علي مخارج الكلمات إن الطفل علي سبيل المثال يصعب عليه في البداية أن ينطق الكلمة بحروف متصلة وواضحة وكذلك تلميذ التلغراف قبل أن يجتاز مرحلة كافية!

كان الأستاذ سعيد هو قائد الأوركسترا الصباحية - إن جاز التعبير - يومياً والفصل كله يتابعه ثم يترك كل اثنين يتبادلان مع بعضهما الإرسال والاستقبال فيتحول الفصل القاعة إلي ورشة عمل حافلة بالضجيج وفجأة يظهر

الناظر سليمان حسين فإذا به يشير إلي أحدهم وفي أقصي مكان حسب قاعة الفصل قائلاً. لا . لا . عندك .. نقطة زائدة فنستغرب كيف أمكنه أن يلاحظ هذه النقطة المشار إليها بالزيادة أو النقصان بين الألف النقط التي تنهمر كما تنهمر حبات المطر؟ ثم ينظر إلي كفة اليد عند هذا أوذاك وهي قابضة علي المفتاح فيقول مرة ثانية لا .. لا .. ضع الكفة كذا والأصابع كذا واترك يدك مرتاحة ومرنة الأصابع والأعصاب فيتنبه الآخرون إلي هذه الملاحظات.. ونتابع إن شاء الله .

الحلقة الحادية عشرة

في أيام التعليمخانة كنا نرصد أخبار الحرب العالمية الثانية ونحللها سياسياً وثقافياً ومؤتمر الخريجين تفهم حقيقة الوضع وانحاز للحلفاء تمهيداً لرفع المذكرة الخاصة بتقرير المصير!

في تناول عابر أشرنا في الحلقة السابقة إلي متابعات THE SENIOR INSTRUC TOR كبير أو رئيس المعلمين.

بالتعليمخانة - مدرسة البريد والبرق - استمع الأستاذ سليمان حسين لأدائنا في الفصل في جانبي الإرسال والاستقبال في مراحل التعليم الأولي ونريد هنا أن نتوقف مع نائبه الأستاذ السيد البكري أبو حراز ولكن لمدي أطول لأنه حل فيما بعد محل الأستاذ الأول ويزامله الأستاذ سعيد عبد المجيد.

شعر المتنبي!

ما كنت أظن أن شعر صناجة العرب أبي الطيب المتنبي ٩١٥ - ٩٦٥م كان يمكن أن يصدح به بجهاز الاستقبال التلغرافي في قاعة كبيرة وبأداء موسيقي جميل تتحول فيه الكلمات والقوافي إلي نقطة وشرطة ثم تعود إلي وضعها الأول أبياتاً من الشعر!.. وضع لم يكن المتنبي يظن أنه سيحدث حتي ولا من قاموا بشرح ديوانه أو من نوهوا بمكانة أبي الطيب في الماضي والحاضر ولا من أعجبوا به أو أطنبوا في الثناء عليه قديماً أمثال ابن جني ورفاقه!

ولكنها المفاجآت تحدث بعد أن مضي علي وفاة المتنبي أكثر من ألف عام!!

الأستاذ السيد البكري يتمشي بين الصفوف في قاعة التعليمخانة ذهاباً وإياباً ينظر ويستمع كما كان يفعل سليمان حسين ثم يأتي إلي جانبه سعيد عبد

المجيد الأستاذ الثاني يبديان مع بعضهما الملاحظات حول مستويات الأداء. ثم يجلس سعيد عبد المجيد ويمسك بالمفتاح الرئيسي ويقول اكتبوا، وإذا بالساوندرات تنهمر. والوضع أشبه ما يكون بالأستاذ يملي والطلبة يكتبون في حصة الإملاء.

ثم يجيء يوم آخر يمسك فيه بالمفتاح السيد البكري أبو حراز بقامته المديدة وأجزاء جسمه الأخري المماثلة بما فيها الأصابع المتناسقة معها ويقول بلغة صموئيل مورس ساملي عليكم شعراً عربياً استعدوا ويبدأ:

وما الدهر إلا من رواة قصائدي

إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً

فسار به من لايسـير مشمّراً

وغني به من لايغني مغرداً

وتليها ابيات أخري وكانت (عطيته) وهكذا يسمونها بمعني إرساله متأنية وثابتة وواضحة، كل حرف قائم بذاته وكل كلمة قائمة بذاتها ويبدو أن كل تلاميذ الفصل قد كتبوا أبيات الشعر بصورة صحيحة. ولم يكن صاحبنا متشككاً في صحة ما كتب لأن الإرسال كان جيداً للغاية بل كان نموذجياً هذا من ناحية ومن الناحية الأخري فإنه - كما سبق القول - كان يشتري بعض الكتب الأدبية والتاريخية مثل كتاب هيكل (حياة محمد) وقد سبقت الإشارة إليه.

وكان من بين ما أتي به من كتب الأدب ديوان المتنبي شرح العكبري فقرأ فيه كثيراً وكان يحفظ الكثير من مقاطع بعض القصائد إذ كان يتذوق شعر المتنبي بصورة غير عادية وللصدفة كانت الأبيات التي أملاها عليهم الأستاذ السيد البكري أبو حراز مما أعجبه وأطربه وعلق بذهنه فلم يكن قد وجد صعوبة في كتابتها أو شكاً في صحة تسجيلها نقلاً عن الساوندر!

أنشطة ثقافية واجتماعية

قال صاحبنا: كانت أشهر العام المحدد لنا في التعليمخانة تتقاطر والسيد البكري أبو حراز يجري لنا امتحانات تجريبية أو اختبارية من فترة لأخري مما جعلنا نشعر بالاطمئنان إلي توقع نجاحنا في الامتحان الأخير الخاص بالتخرج وكما كانت المدارس تهئ لنا القيام بأنشطة ثقافية واجتماعية خارج النطاق المدرسي أو الفصول فقد كانت مدرسة البريد والبرق تفعل الشئ ذاته فقد كانت هناك زيارات لبعض مكاتب البريد لمشاهدة العمل ميدانياً ثم حدث أن دعانا المستر (دن) المفتش البريطاني بالبريد والبرق لمشاهدة أفلام سينمائية بمنزله المجاور للمدرسة حيث عرض علينا بواسطة جهاز سينمائي صغير مشاهد لبعض جوانب الحياة في بريطانيا آنذاك. أمافي الأشهر الأخيرة فقد بلغنا أن السيد سليمان حسين قد رقي إلي وظيفة أعلي برئاسة المصلحة وقرر أساتذتنا إقامة حفل وداعي بمشاركتنا فيه واختيرت له إحدي حدائق شمبات. خاطبنا استاذنا البكري قائلاً: إنني سألقي كلمة واختاروا أنتم واحداً منكم يلقي كلمة بأسمكم في وداع ناظركم فرحبنا وقرر زملائي اختياري لأقوم بهذه المهمة قائلين لي إن لديك هوايات أدبية وكتابية وحينما رفعوا اسمي للأستاذ سأل لماذا وقع اختيارهم علي فأجابوه بالأسباب التي سبق أن ذكروها لي. أما أنا فبدلاً من أن ألقي كلمة فقد ألقيت قصيدة لكنها بالطبع كانت في حدود المستوي الفني الموجود لدي في تلك الفترة المبكرة ولم أعد وأنا أكتب هذه المذكرات أوالذكريات آذكر منها شيئاً إلا أني ظللت احتفظ بما ورد فيها من معان تشير إلي الإشادة بالجدية والإخلاص اللذين عاملنا بهما ناظرنا وإلي سعادتنا بما

حصل عليه من ترقية قائمة علي تقدير جهاده وأن الناس لافائدة منهم إن لم يحسوا بأنهم يأسفون لافتقاد صحبة كانت مفعمة بالمودة والاحترام!

سر صاحبنا غاية السرور عندما صفق له الناظر المُحتفي به والأستاذان والطلبة كثيراً مستحسنين قصيدته الأمر الذي لم يكن يظن أنه سيصل إلي هذه الدرجة!

كما لاحظ أن أستاذه السيد البكري قد شدت هذه القصيدة انتباهه نحوه كمن يكتشف شيئاً جديداً يعجبه وقال المُحتفي به لزميله البكري بصوت نسمعه وهو يشير إلي : هذا الطالب فيلسوف!

ومنذ ذلك اليوم بدأ الأستاذ البكري يقف عنده في الفصل المرة تلو المرة ويحادثه ويسأله عما قرأ أو يقرأ من الكتب ودواوين الشعر لاسيما في تلك الأشهر الأخيرة التي سبقت تاريخ التخرج كما عرف صاحبنا من الجانب الآخر أن أستاذه رجل أديب وأنه يمارس في إقلال كتابة الشعر وهكذا أخذت تتوثق بين الأستاذ والتلميذ علائق شبه أبوية نتج عنها فيما بعد اتصال طيب ومفيد سنتعرض إلي بعض المواقف التي انبثقت منه في حينها كل في زمنه وموقعه.

الحرب العالمية الثانية والسودان

وقبل عام ١٩٤١ كانت الحرب العالمية الثانية بين الحلفاء من جهة ودول المحور من جهة أخري وعلي رأسها إيطاليا بقيادة موسولين مبدع الفاشية العالمية في عصره باسطة نفوذها علي الحبشة من الجهة الشرقية للسودان وتوغلت حتي احتلت مدينة كسلا كما كانت ألمانيا النازية توشك علي بسط نفوذها هي الأخري علي المغارب العربية في شمال إفريقيا وعلي الأخص في ليبيا مما جعل بريطانيا ومصر شديدتي القلق علي السودان بل علي مصر

نفسها وطلبا من (قوة دفاع السودان) آنذاك أن تسهم في الحرب علي الأقل دفاعاً عن وطنها!

وهنا وفي هذا الموقف الحساس بدأت الطبقة المثقفة في بلادنا تنشغل بالموقف وخاصة مؤتمر الخريجين الذي كان من رأي قيادته الوقوف إلي جانب الحلفاء وإلا يعترضوا علي موازرة السودانيين لهم وأن يشجعوا اشتراك قوة دفاع السودان في تلك الحرب لا لأن الحلفاء - علي الأقل - أفضل من النازيين والفاشيين فحسب وإنما لغرض آخر هو توقع انتهاء الحرب لصالح الحلفاء وبالتالي التمهيد لتقديم مطالب السودان لدولتي الحكم الثنائي بشأن إعطاء البلاد حق تقرير المصير خاصة وأنها قد وقفت مع الحلفاء ضد أعدائهم . وهذا ما قاموا به فعلاً في عام ١٩٤٢م حينما رفع الأستاذ إبراهيم أحمد رئيس المؤتمر مذكرة المطالبة بإعطاء السودان حق تقرير المصير.

كان هذا هو رأي الطبقة المستنيرة أو مؤتمر الخريجين عام ١٩٤١م قال صاحبنا: كنا نحن طلبة مدرسة البريد والبرق نسمع هذه الآراء ونقرأها في الصحافة السودانية والمصرية معاً ونجد في الصحافة المصرية اهتمام البرلمان والرأي العام بموقف مصر نفسها إلي أن أعلنت انضمامها رسمياً إلي الحلفاء لأنها كانت مهددة للغاية في عام ١٩٤٢م وكانت قوات (روميل) علي حدودها الغربية حتي دفع رئيس وزراء مصر أحمد ماهر باشا حياته ثمناً لإعلان ذلك الموقف المصري الرسمي من البرلمان فاغتاله شاب متضامن فكرياً مع النازية لأنها ضد الاستعمار البريطاني!

والنازية الشعبية عندنا

بالرغم من موقف الطبقات المستنيرة في السودان ومصر مع الحلفاء إلا أن بعض الطبقات الشعبية وبعض الشباب الذين كانوا معجبين بهتلر إلي درجة الهوس لا لشئ إلا لآنه هزم العديد من دول الحلفاء شرق وغرب الكرة الأرضية لأن جيوشه كانت تقاتل عند أبواب موسكو شرقاً واحتلت باريس غرباً والدول الأروبية التي بين ألمانيا وباريس وانتقلت إلي شمال إفريقيا بصورة تشير إلي خطورة المواقف في كل من مصر والسودان بخلاف تهديد الفاشية للسودان من الجهة الشرقية. كان الشباب المتعلم والشعبيون الآخرون يرون أن هتلر إن لم يقضي علي الاستعمار البريطاني فهو سيهزه هزاً عنيفاً ويقضي علي صلفه واستبداده!

الصليب المعكوف

كان الصليب المعكوف شعار هتلر قد انتشرت صورته في كل أنحاء العالم رمزاً للشجاعة والبطولة فأخذ بعض الشباب يسهر في بعض الليالي ليرسمه علي الجدران وفي مواجهة الشوارع الرئيسية والفرعية في عاصمتنا السودانية المثلثة وأخذ بعض الشباب يتبادلون تحية النازية (هايل هتلر) لقد أزعجت هذه الحركات المسئولين البريطانيين في السودان إلا أنهم كانوا مطمئنين لرأي المثقفين والخريجين في السودان لأنهم تعاملوا مع الظروف بوعي وحكمة.

كانت لقاءاتنا الصباحية في (التعليخانة) تشكل علي الدوام ندوات سياسية يمكن وصفها بأنها راقية كنا نقرأ ونسمع بمتابعة منتظمة للأجهزة الإعلامية وما تنقله من أخبار الحرب العالمية الثانية وانتصارات دول المحور علي دول الحلفاء وكنا بمفهوماتنا السياسية المبكرة نحلل ونقدر ونراهن ونتناقل أو نتبادل نقل المعلومات والأخبار فمن سمع أو قرأ يحكي لمن لم يسمع أو لم يقرأ.

يونس بحري

وفجأة نسمع إذاعة برلين العربية ومذيعها العراقي يونس بحري الذي كان يذيع بفصاحة وسخرية تثير الضحك بدول الحلفاء والاستهزاء بهم وبتمجيد جيوش النازية التي لم يعد يقف أمامها جيش آخر وقد كانت حينذاك منتصرة ومظفرة نسمع في المساء يونس بحري وصوته يجلجل (هنا برلين هنا برلين) ثم يذيع:

أين فرنسا واليونان فبأي آلاء ربكما تكذبان؟ أين شرشل وبيتان فبأي آلاء ربكما تكذبان؟ وبيتان كان رئيس وزراء فرنسا.. فكنا نعجب بل نطرب لهذه الفصاحة وهذا التمكن الأدبي العجيب في اللغة حتي أنه أقحم الآية القرآنية في حديثه الإذاعي بصورة تتابعية سجعية لا نبو في إقحامها ولا غرابة!!

ولكن النازية والفاشية هزمتا شر هزيمة وانتصرت قوي التحالف ولكن بعد تضحيات فظيعة التكاليف باهظة الأثمان!

ولعلي لا أنسي أن ذلك الإذاعي صاحب الصيت الذائع والعراقي الجنسية جاء إلي السودان بعد انقضاء الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥م، بسنوات وفي مرحلة الاستقلال بأمل الإقامة في السودان إلا أن الحكومة آنذاك رفضت ذلك خوفاً من أن يجر اسمه عليها بعض المتاعب السياسية لارتباطه بإعلام النازية التي حوكم كل من ألقي عليه القبض من الذين كانوا يتعاونون معها عالمياً وإن لم تخني الذاكرة فإنه جاء في عهد حكومة عبد الله خليل قبل انقلاب ١٧ نوفمبر ١٩٥٨م لقد جرتنا سنة ١٩٤٢م إلي ما تلاها بكثير ولكن بعض النقاط يفرض علي الكاتب ألا يتجاوزها فإلي اللقاء.

الحلقة الثانية عشرة

معارك الحلفاء ودول المحور علي حدود مصر الغربية تتهدد مصر والسودان معاً ويونس بحري يذيع ويل للكاتب المأجور عباس العقاد والعقاد يصل الخرطوم

مازلنا في مطلع عام ١٩٤٢م عام التخريج وما زالت هناك حوادث طريفة عن النازية وعن يونس بحري وعن مخاوف المصريين من النازية وهي علي حدودهم من الجهة الغربية - ليبيا - وهي المخاوف التي كنا في السودان نعاني منها وخاصة حكامنا الإنجليز لاسيما وأننا مهددون من جهة ليبيا ومن مصر إذا سقطت في أيدي النازيين بالإضافة إلي التهديد الفاشي الذي سقطت خلاله أثيوبيا في أيدي الطليان من قبل.

إنها أجواء ساخنة وكما سبق القول فإن شباب التعليمخانة كانوا يشكلون نوعية واعية ونادرة يتتبعون الأحداث العالمية البعيدة عن بلادهم ناهيك عن هذه التي تتفجر علي حدود وطنهم شمالاً وشرقاً وغرباً!!

شيرشل ويونس بحري والعقاد!

عاش الشعب المصري تلك الأيام حالة لا يحسد عليها فالنازية علي الحدود الغربية بكل ثقلها وأحداث (العلمين) والسلوم كانت مخيفة إلي أقصي حد وروميل القائد النازي في شمال إفريقيا يتهدد ويتوعد ويتبجح ومنتوجمري القائد البريطاني لقوي الحلفاء يقاتل بقوة وعنف ولكن في صمت وقد قالوا إنه كان رجلاً عسكرياً بسيطاً نحيفاً ولكنه شديد الصرامة والحزم والجدية ينهي ضباطه الكبار عن شرب الخمر في مثل هذه الظروف كما يحذرهم من التدخين فكانوا يمارسون تعاطي هذه المكيفات بعيداً عن نظره.

وتشاء الظروف أن يخصهم المستر شيرشل رئيس الوزراء الإنجليزي بزيارة ميدانية ويوضع علي مائدته العشاء والخمر والسجائر ليجتمع مع الضباط ويتعشي معهم فيلحظ أنهم يعتذرون عن الشرب والتدخين فيستغرب ثم يغمز إليه أحدهم بإشارة خفية نحو قائدهم مونتو جمري بما يفيد أنه هو السبب وإذا به يخاطب القائد هل أنت نصحتهم بالتوقف عن الشرب والتدخين؟

فيجيب مونتو جمري نعم.. لماذا؟ لأني أريد لهم أن يحتفظوا بصحتهم ونشاطهم ويقظتهم وهم يواجهون عدواً شرساً رهيباً كما تعلم وتري!

فيقول له شيرشل أنا أشرب وأدخن بكميات كبيرة يومياً ومع ذلك فكما تري فأنا قوي ضخم الجسم وأنت نحيف ضعيف ويضيف وأنا لا أدخن هذه السجارة الصغيرة وإنما السيكار كما تري كذلك ثم يقول للقائد الإنجليزي أسمح لهم هذه الأمسية فقط لأننا نريد أن نسهر ونتحدث عن مشاكل هذه الحرب اللعينة.

معركة العلمين

قالو إن معركة العلمين علي الحدود المصرية الليبية كانت شرسة وقوية بين النازين والحفاء وكانت الإذاعات والصحف العالمية تنقل أخبارها ربما يومياً وبأنتظام وكان يونس بحري يأتي بالتفاصيل في (هنا برلين هنا برلين) كما كان يحلو له أن يرددها.

العلمان والعلمين

وتشاء الظروف أن تقع في أيدينا صحيفة مصرية فيها أبيات لشاعر مصري ظريف عبر عن حيرة الشعب المصري إزاء هذه المشكلة التي لا ناقة لمصر فيها ولا جمل فهي حرب بين دول المحور ودول التحالف لكن الأخيرة فرضت علي مصر أن تنضم إليها وكان أول كوارثها اغتيال رئيس الوزراء المصري أحمد ماهر باشا كما سبقت الأشارة الي ذلك .

والتاريخ يعيد نفسه مراراً فقوي التحالف في هذه الأيام بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا تدعو دول العالم كلها للإنضمام إليها ولكن لمحاربة (الإرهاب)!! (الإرهاب)!!

ونعود للشاعر المصري الظريف وإن كنت لا أذكر أبيات قصيدته ولا اسمه ولكن بيتاً واحداً من تلك القصيدة مازال راسخاً في ذاكرتي ولكن كان فيه الكفاية قال لافض فوه:

علمان في (العلمين) يقتتلان

يا مصر ما العلمين ما العلمان؟

يعني وكأنه يقول بالعامية المصرية (واحنا مالنا؟) ولكن الموقف كان أكثر خطراً مستقبلاً فالنازية لو نجحت في الوصول إلي مصر بعد اجتياز السلوم علي الحدود المصرية ماذا كان يحدق بمصر وحدها وإنما بالسودان بدوره!

إن أحاديث يونس بحري الإذاعية كانت تشير بوضوح إلي تهديد مصر بالغزو والسبب الأول هو أنها إنضمت لدول الحفاء ضد دول المحور والسبب الثاني هو أن الكاتب الكبير العقاد ألف في تلك الأيام كتاباً عنوانه (هتلر في الميزان) حلل فيه النازية والفاشية كنظم استبدادية تقوم علي الدكتاتورية والطغيان واقتلاع جذور الحريات وقارن بين تلك النظم ونظم الحلفاء التي تقوم علي الديمقراطية وكفالة الحرية والعدالة في كافة جوانبها!

كان الكتاب يشكل حقيقة انحيازاً واضحاً لقوي التحالف ولكنه انحياز يقوم علي أسس سياسية وثقافية صحيحة وسليمة إلا أن أحكامه قد أغضبت النازيين غضباً شديداً

العقاد الكاتب المأجور

كان لابد من أن فحوي الكتاب ستنتقل وعلي عجل إلي اللغات الإنجليزية والفرنسية وخاصة الألمانية التي هي المعنية قبل غيرها لأن هتلر هو رمزها الكبير في تلك الأيام!

وإذا بنا نسمع يونس بحري يقول:

ويل للكاتب المأجور عباس محمود العقاد.. إننا سننتقل من العلمين فالسلوم إلي الإسكندرية وبعدها القاهرة مباشرة.

لقد بث هذا التهديد الرعب في وادي النيل كله شمالاً وجنوباً خاصة وأن كفة الحرب لم تتحول بعد لمصلحة الحلفاء فالنازيون أو دول المحور مازالوا بيدهم الغلبة وكاتب العرب الكبير ورد اسمه بصفة خاصة علي رأس قائمة التهديد

المفاجأة .. العقاد في الخرطوم

وفوجئ المجتمع السوداني بأن العقاد وصل إلي الخرطوم واهتم الخريجون ودوائرهم الثقافية بهذا النبأ العظيم الذي أبهجهم بصورة لا نظير لها فالعقاد مقروء ومحبوب بصورة مدهشة لذلك الرعيل المثقف حقيقة لا مجازاً أنهم يتابعون كتاباته في السياسة وفي الثقافة بعامة ومقالاته النقدية الجادة وخروجه الاضطراري من مصر لم يكن مستغرباً أو مستبعداً بعد أن هدده يونس بحري من إذاعة (هنا برلين هنا برلين) ووصفه بالكاتب المأجور لأنه وضع هتلر في الميزان وانحاز لدول التحالف ضد دول المحور النازية والفاشية في مقابلة الديمقراطية وتهديد يونس بحري إنما يعني لسان من يتحدث باسمهم.

هلل الخريجون وكبروا وفرحوا باستضافة السودان للعقاد وحتي الإنجليز قد رحبوا بمجيئه خاصة وأن السكرتير الاداري كان رجلاً مثقفاً وثيق الصلة

بالمثقفين السودانيين واسمه مستر دوقلاس نيوبولد وقد نقل استضافة العقاد من الخريجين لحكومة السودان عقب الاستئذان.

وسرعان ما احتفل الخريجون بالعقاد في ناديهم (العتيد) كما كانوا يصفونه ولم أرجع إلي الكلمة لأتبين حقيقتها وربما أوردتها يوماً في اللغويات إن شابها شئ من الخطأ.

تقاطر رجال مؤتمر الخريجين والأدباء والشعراء لحضور الحفل وشهد الجميع العقاد جالساً بين مضيفيه في الصف الأول سعيداً مبتهجاً وهو يستمع إلي كلمات وقصائد الذين رحبوا به وسروا بمجيئه للسودان وتحدثوا عن كتبه ومقالاته وآرائه وفيها ما يتضمن التحليل والثناء وأحياناً النقد ولكنه لم يتضايق إلا من قصيدة علي نور شاعر المؤتمر الذي مس في بعض أبياته وترا حساساً بالنسبة للعقاد مع أنها كلها جاءت في قالب الإعجاب والمدح والثناء قال علي نور:

قالوا جبنت من الجُلّي وما عرفوا

مكان من خطبوا الجلي ومن مهروا

لكن حملت نفيساً فانتبذت به

عبر النجاة عســاه ينفع الحذر

يعني أنك لم تأت الي السودان خوفاً علي نفسك وإنما علي هذه الثقافة النفيسة الغالية التي حملها عقلك وصدرك وكان العقاد بحساسيته المفرطة وشجاعته كصعيدي مصري قح من أسوان يتجنب مجرد الإشارة إلي أسباب لجوئه المباغت للسودان. ومع أن علي نور أشار إلي ذلك الموقف وهو يهاجم من يتهمون العقاد بالخوف ويدفع عنه تلك التهمة بمنطق من الثناء الموضوعي

والرأي إلا أنه دون أن يدري ودون أن يقصد فقد وقع في المحظور بالنسبة لمفهوم العقاد.

ولكن ولحسن الحظ فإن محمود الفضلي الأديب والكاتب الصحفي المرموق كان يحفظ الشعر الجميل وينشده بلحن حلو الأداء وبصوت كأنما خلق لهذا اللون من الإنشاد فاختار قصيدة وجدانية رائعة من شعر العقاد ويبدو أن العقاد كتبها يوماً ما وهو واقع في حبائل الحب فصدح الفضلي بالقصيدة علي المنصة وهو يقول:

أبعداً نرجّي أم نرجّي تدانياً

كلا البعد والقُربي يهّيج مابيا

ويظهر أن العقاد كتب هذه الكلمات وهو في موضع القرب فكيف به الآن وهو في موضع البعد وفي السودان وإذا بة يجد نفسه اليوم يعاني من الموضعين (كلا البعد والقربي).

ذكر أستاذنا المبدع حسن نجيلة هذا الموقف وكان جالساً قريباً من العقاد فرأي الدموع تترقرق من عينيه علي خديه فانسل من الاجتماع بهدوء وذهب ليسجل المشهد في إحدي الصحف السودانية التي ستصدر صباح الغد في كلمة قصيرة بعنوان (دموع الجبار) كان نجيلة حسبما ورد في كلمته لايتخيل أن الجبابرة يمكن أن يبكوا كالآخرين؟

وقرأ العقاد الكلمة في الصباح وقال أريد أن أتحدث إلي نجيلة فأجتمع به في المساء فكان أول كلمة وجهها إليه هذا السؤال: من قال لك أن الجبار لايبكي؟

ولكن يظهر أن تلك الدموع التي تساقطت علي خدي العقاد أثناء تلك

القصيدة التي أنشده إياها محمود الفضلي بصوته الحلو الندي ثم الكلمة التي كتبها حسن نجيلة قد سرت عن العقاد وخفضت من وقع قصيدة علي نور شاعر المؤتمر والذي لم يكن يحسب أنها ستصيب الكاتب الجبار في وتر حساس!

قال صاحبنا:هذا كله من مخزون الذكريات الذي بدأ في زيارة العقاد للسودان عام ١٩٤٢م مقترناً بتهديد روميل لمصر ومن ثم السودان وقد تراكمت عليه العقود من السنوات في القرن العشرين الذي أصبح منصرماً وما حملته تلك العقود من كتابات الأدباء والشعراء والصحفيين في السودان ومصر مما له علاقة بتلك الزيارة التاريخية.. وبما أن الزيارة مازالت لها بعض الذيول قال صاحبنا فإننا سنعود لمواصلتها إن شاء الله.

الحلقة الثالثة عشرة

العقاد وهو يؤلف عبقرية عمر وجد في الخرطوم المراجع الأدبية والتاريخية ويونس بحري يصف إذاعتنا بأنها حشرة تطن في السودان اسمها هنا أم درمان

نحن ما زلنا في عام ١٩٤٢م الذي سنتخرج خلاله في التعليمخانة ويبعث بنا إلي مكاتب البريد والبرق في مختلف أقاليم السودان لنحصل علي الشهادة التطبيقية ميدانياً بعد أن حصلنا علي الشهادة النظرية تعليمياً ومن ثم يقال عن المتدرب أنه أصبح مؤهلاً فيا للجدية في ذلك الزمان ويّاله من تأهيل.. ولكن لا بأس فإن الشهادة تحقق لصاحبنا علاوة جديدة في مرتبه.

عودة للعقاد والنازية

والعنوان الجانبي هذا يجر معه احتفال السودان بمجئ العقاد المفاجئ للخرطوم وموقفه من النازية ويونس بحري الذي ظل يلاحقه ويلاحقنا في السودان الأمر الذي تطرقنا إليه في الحلقة السابقة وقلنا إن له بعض الذيول وها نحن نعود إليها لقد استمرت احتفالات الخريجين بالعقاد وتطرق يونس بحري إلي (فراره) إلي السودان وهاجم إذاعتنا الناشئة فقال إن هناك (حشرة تطن في السودان اسمها (هنا أم درمان) ولا أدري بالتحديد أو لا أذكر ماذا كان مدخله إلي مهاجمة الاذاعة السودانية ولكنها بالطبع كانت تذيع أخبار الحلفاء وتصميمهم علي دحر دول المحور إلي غير ذلك من الأدبيات السودانية التي كانت تشيد بشجاعة الجندي السوداني الذي اشترك في معارك ليبيا عقب معارك أثيوبيا والذي حصل فعلاً فيما بعد علي الإشادة الرسمية من رئاسة الحلفاء الأمر الذي افتخر به الشعب السوداني.

ومما وعته الذاكرة من أمسيات العقاد في الخرطوم أنه من خلال ما روي أونشر كان يتتبع احاديث الأدباء من الخريجين ثم يرد عليها بأفاضة كاملة وفق أسبقياتها في الأمسيات ولا يترك صغيرة أو كبيرة إلا وحرص علي الرد عليها وكان يقول لجلسائه أنه لم يكن يتصورران كتبه أو مؤلفاته يمكن أن تجد هذا الاهتمام أوهذا الاستيعاب الذي وجدته لدي القارئ السوداني وقد كررهذا المفهوم كتابة وشفاهة عندما عاد الي القاهرة وميز القارئ السوداني علي غيره في كافة الأقطار العربية!

كتابه عبقرية عمر

عندما قام العقاد بزيارته المفاجئة للسودان كان يرتب ويصنف في القاهرة مادة كتابه عبقرية عمر وحين سئل عن هذا الكتاب في الخرطوم قال لقد شرعت في تأليفه إلا أنني لم استطع حمل كل المراجع معي إلي الخرطوم فرد عليه البعض من الخريجين نحن هنا يمكن أن نمدك بكل ما تحتاج إليه من المراجع القديمة والحديثة! فعقدت الدهشة لسانه وقال له بعضهم اكتب لنا المراجع التي تريدها فإذا بها خلال يومين أو ثلاثة توضع أمامه!!

وسأله بعض آخر هل تحتاج إلي مراجع إنجليزية مثلاً؟ فقال أهي عندكم أيضاً؟

قالوا: نعم ثم أحضرت إليه خاصة بعض كتب المستشرقين والحقيقة أن تلك الأجيال الرائدة منذ ما قبل بداية الثلاثينيات كانت مثقفة حقاً وعظيمة حقاً وكان من الطبيعي أن يندهش العقاد وأن ينعقد لسانه وهو يفاجأ بقدراتها ومواهبها الثقافية ومن أطرف ماروي عن الأيام التي قضاها العقاد في السودان أنه كان سعيداً بإقامته وبما تبادله معه الأدباء السودانيون حول

مؤلفاته وحول قضايا الثقافة العربية عموماً وإعجابه بهذا النشاط الفكري الذي لم يشهد مثله حتي في مصر إذا به يتعرض في إحدي الأمسيات لحشرة تلدغه فيتورم مكان لدغتها له فينزعج للأمر في حين أن أكثر من طبيب سوداني يؤكدون له أن هذه المسألة بسيطة للغاية وأنها خلال يومين أو ثلاثة علي الأكثر سينتهي أثرها إلا أن العقاد أصر علي العودة الي القاهره والحقيقه أن سفر العقاد أو عودته لمصر لم تكن بالطبع بسبب الحشره او لدغتها وإنما في الغالب ان هناك هموماً لم يفصح عنها هي التي اضطرته للعودة المفاجئة لمصر في حين أنه كان سعيداً للغاية بالأيام التي قضاها بالسودان في جو ثقافي وأدبي مفعم بالتجاوب الأخوي والتناغم الفكري بينه وبين إخوته في السودان واغتباطه الذي تحدث عنه للخريجين ومؤتمرهم الوطني وناديهم (شيخ الأندية) ومكتباتهم الخاصة بمنازلهم والتي اكتشف أنها خزانات كتب عربية وإنجليزية تكاد تعكس طابعاً عاماً لدي المثقف السوداني في تلك المرحلة التاريخية المبكرة.

السمعة السودانية العظيمة

كان السودان في تلك الفترة يتمتع بسمعة عظيمة من حيث الشجاعة التي أبداها جنوده البواسل في (قوة دفاع السودان) وفي تجاوب الشعب السوداني معهم في أغانيه وأناشيده الساخرة خاصة بالغزاة الإيطاليين والفاشيين وابتهاجه بتحرير مدينة كسلا منهم ثم انتقاله مع دول الحلفاء إلي الحبشة لإلحاق الهزيمة بتلك القوي الشريرة وبطولات جنوده وضباطه التي تحدثت عنها الإذاعات والصحف العالمية في منطقة (كرن) عام ١٩٤١م هذا عدا مواقفهم في شمال إفريقيا.

وهيلا سلاسي في السودان!

كان الإمبراطور هيلاسلاسي آنذاك لاجئاً سياسياً بأوربا إلا أنه بعد أن اقتربت بشائر النصر جاء إلي السودان وأقام بالخرطوم ولقي حفاوة طيبة من حكومة السودان ومن الزعماء الوطنيين كأخ من قطر شقيق<مجاور ثم رجع إلي وطنه منتصراً وهو يحمل للسودان أطيب الذكريات.

قال صاحبنا: أما!نحن في تلك المدرسة الفنية علي حداثة في السن كنا نتتبع الأحداث كما سبقت الإشارة إلي ذلك ونناقشها ونحللها حتي انتهي ذلك العام الموعود بالنسبة لنا وأدينا الامتحان النهائي وبدأ أستاذنا البكري يوصي ويحذر: ليحاول من يستطيع منكم أن يقيم مع بعض الأهل أو أصدقاء الأسرة أو يقيم وحده فالمنازل في الأقاليم رخيصة الأجر الشهري وابتعدوا عن رفاق السوء. إن (ميزات) الأفندية غير صالحة لأمثالكم فأغلبهم فاسدون يشربون الخمر.. اكتبوا لي عن مشاكلكم أو إذا كانت مراكز العمل التي تنقلون إليها غير مناسبة لكم فقد أستطيع تقديم الحلول للمشاكل التي تعانون منها إن شاء الله.

مدينة الخرطوم زمان

بدأنا نعد أنفسنا للسفر إلي الأقاليم ولكن قبل ان ننتقل إليها دعنا نلقي نظرة عابرة علي العاصمة المثلثة التي سنغادرها فأم درمان والخرطوم بحري قد تطرقنا إليهما في إيجاز فكيف كان الوضع في الخرطوم؟

كانت حكومة السودان المفوّضة من دولتي الحكم الثنائي لا تزال تشد قبضتها علي السودان وهي حكومة إنجليزية لحماً ودماً وليس فيها من الواجهة المصرية إلا العلم المصري ومصلحة الري المصري! ثم طرأ التعديل الذي سبقت الإشارة إليه بعد توقيع اتفاقية ١٩٣٦م والتي قال عنها مصطفي النحاس باشا

(وقعتها من أجل مصر والغيتها من أجل مصر) وبعدها عادت إلي السودان بعض وحدات الجيش المصري التي تم إجلاؤها عام ١٩٢٤م بعد مقتل السير لي استاك في القاهرة!

كانت مدينة الخرطوم تمتد علي شاطئ النيل الأزرق بدءاً بالجهة الشرقية التي كانت تتكون منها معسكرات$الجيش الإنجليزي فكلية غوردون فمستشفي النهر (الآن وزارة الصحة) فمصلحة المالية فالداخلية إلي أن تنتهي المباني الرئيسية إلَ (سراي الميرغني) وأخيراً (جنينة الحيوانطت).. وكانت تتخلل هذه المصالح الحكومية مؤازل السكرتيرين الثلاثة: الإداري والمالي٣والقضائي فمن يليهم من كبار المسئولين اموريطانيين كما تقع خلفها مؤسسات حكومية أخري كالقضائية والمديرية والزراعة فمنازل بعض الموظفين البريطانيين الكبار ومن يليهم أما أولئك السكرتاريون الثلاثة فقد كانوا بمثابة وزراء مسئولين أمام الحاكم العام!

ثم تأتي الشوارع الرئيسية الثلاثة: شارع الجامعة، وشارع الجمهورية، وشارع البلدية، وهي أسماء مستحدثة بعد تلك المرحلة وكانت تلتف بها منازل ذات حدائق غناء، يسكنها الموظفون البريطانيون يليهم بعض الأفراد من الجاليات الأجنبية عدا منطقة السوق العربي البائسة مقارنة بغيرها والتي كان يسكن حولها سودانيون من التجار وبعض الموظفين وقد احتفظ بطرفي الخرطوم الشرقي والغربي ليكونا مكاتب ومنازل لرجال الشرطة أما حي المقرن الحالي فلم يكن موجوداً إلا بعد ذلك بأعوام وكانت المدينة تنتهي من الناحية الجنوبية بمحطة السكة الحديد والمرطبات ومنازل موظفي وعمال السكة الحديد ثم شرع بعد ذلك في بناء حي (الخرطوم٣) الذي تغني به الفنان أحمد المصطفي عند بدء

تألقه بحسناواته أما مكان (الخرطوم٢) الحالية فقد كان به شعب فقير بنيت بيوته الضيقة بالجالوص وكان اسمها الديوم!

وزمن الرخاء

كانت مدينة الخرطوم تنعم برخاء لا مثيل له قال صاحبنا: دعني أضرب لكم هذا المثال: في بداية سنة ١٩٤١م كنت أسكن أنا وقريب لي من القرية اسمه الشيخ الطاهر منزلاً عند بداية شارع الحرية من الجهة الشمالية سوق الخرطوم - استأجرنا حجرة وبرندة في الدور الثاني بمبلغ جنيه واحد شهرياً ثم عرضت علينا صاحبة المنزل التي كانت تسكن هي وبنتاها الصغيرتان في الدور الأرضي أن تعد لنا غداء يومياً يتكون من لونين من الإدام وطبقاً من اللحم الضاني ثلاث مرات في الأسبوع علي أن تتقاضي منا مبلغ: ٨٠ ثمانين قرش صاغ في الشهر وقالت أن الصينية التي ستعدها لنا ستكفي لاثنين أو ثلاثة غيرنا إذا حضر غداءنا ضيوف من الأهل أو الأصحاب فقبلنا العرض علي الفور شاكرين.

وكان كوب الشاي الأحمر أو باللبن ثمنه نصف قرش (خمسة مليمات) ولكن أحد المواطنين افتتح مقهي فاخراً من حيث الأثاث والأواني في الدور الأرضي من مقر عمارة أبو العلا الأولي المطلة علي الصينية القريبة من زنك الخضار ومحل الفوال سابقاً وسماه مقهي الشباب ورفع الثمن إلي قرش كامل (عشرة مليمات) لكوب الشاي الكبير وكان يسمي (الشب) يكاد نصفه يكون لبناً فأصبح مقهي خاصاً ولايقصده الاطبقة الموظفين.

ومن جانب آخر فإن جلابية (البوبلين) وهو قماش أبيض ناعم الملمس ناصع البياض كانت تكلف عشرة قروش فقط ثمن القماش وأجرة الترزي!

العم عبد الله حامد

قال صاحبنا كان العم عبد الله حامد يزورنا أنا والصديق في ذلك المنزل أحياناً فيتناول معنا طعام الغداء وكان يلاحظ أن أحدنا كان ينزل ليأتي بالشاي فشعر كما قال لنا فيما بعد بأن ما نقوم به أنا والشيخ الطاهر فيه تعب وإسراف فإذا به يفاجئنا بوابور جاز وكفتيرة وأكواب قال أنها لم تكلفة جميعها خمسين قرشاً وأعد لنا ذلك اليوم شاياً شربناه في البرندة أمام غرفتنا في الطابق الأعلي !

والعم عبد الله حامد هذا هو قريبه الذي نزل عنده لأول مرة وهو قادم من شندي للالتحاق بالمدرسة الوسطي بأم درمان وكان من رجال الحملة الميكانيكية وكانت منازلهم بالقرب من محطة السكة الحديد بالخرطوم بحري.

كان صاحبنا وصديقه عبد الرحمن الشيخ الطالبان بمدرسة خرطوم بحري يذهبان إلي ذلك العم للغداء معه حينما يطلب من التلاميذ العودة في العصر للمدرسة ببحري وهما يسكنان في شمبات وكان صاحبنا يصر علي أن يصحبه صديقه عبد الرحمن الشيخ الذي كان يتأثر في فترة كنا نجد فيها العم عبد الله حامد وحده في ا لمنزل وأن اسرته قد ذهبت إلي القرية فإذا به يذهب إلي السوق ويعود ومعه الغداء في لحظات أما الشاي فهو يعده في منزله كالمعتاد كان عبد الرحمن الشيخ الأستاذ فيما بعد وكبير أساتذة تعليم الكبار يقول لصديقة ليتنا ذهبنا إلي شمبات وعدنا بدلاً من أن نكلف هذا العم كل هذا التعب، فيقول له صاحبنا: أنه عمي وأن أعرف أخلاقه أن هذا التعب الذي تتأثر به أنت يسبب له سعادة وانشراحاً لا تتصورهما ففي فترة من عام ١٩٣٩م عاش فيها صاحبنا مع عمه عبد الله حامد فكان يشهد منه العجب العجاب! كان

يفاجئه أحياناً بأنه قد جمع ثيابه وغسلها له بنفسه كان عبد الله حامد رحمه الله نسيج وحده في الناس من حيث السماحة والنبل والفضل ولن ينسي صاحبنا ما عاش ذلك الحب والود اللذين كان يحيطه بهما صحيح كل شئ في حياة الناس في أواخر الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات ينال بأرخص الأثمان ولكن الفضل لايمكن أن يشتري بأغلي الأثمان وإنما هي سجايا وفضائل يختص الله بها من يشاء من أهل الفضل والسجايا رحم الله العم عبد الله حامد..

الحلقة الرابعة عشرة

قطار شرق السودان ينهب بنا الأرض منذ صباح اليوم إلي صباح الغد!! وجبيت تستقبلنا بطبيعتها الساحرة بجمال الجبال والأراك والسحب والغيوم والشبورة!!

قال أستاذ مدرسة البريد والبرق لتلميذه الذي كان يضفي عليه صفة الأبوة، لقد اخترت لك مدينة صغيرة هادئة لكي تتفرغ للدراسة والقراءة وتنهل من مختلف منابع الثقافة وخاصة الشؤون الأدبية التي لمست فيك تعطشك لها وهي ذات طبيعة شاعرية تتمثل في الجبال المحدقة بها وغابات شجر الأراك الملتفة حولها لكي تتأملها وتنمي شاعريتك فيما تكتبه في موضوعها هذه المدينة هي جبيت فما رأيك؟

فأجاب تلميذه، حسناً ما اخترت يا أستاذي ولقد شوقني وصفك هذا للوصول إليها علي عجل. ضحك الأستاذ وقال: خلال يومين أو ثلاثة ستصلني من المصلحة الخطابات الموجهة لكم وسيعرف كل واحد منكم وجهته وقد حقق الأستاذ للبعض منا طلبه بأن ينقل إلي المدينة الفلانية التي بها أهله أو أقاربه أو لأي سبب آخر وقد كان استاذنا محل الاحترام في رئاسة المصلحة وكانت الوحدة المسئولة عن شؤون الموظفين فيما يتعلق بالتنقلات تحب أن تهيئ لهؤلاء الموظفين الجدد بقدر الإمكان الفرص المناسبة بالتعاون مع المدرسة ممثلة في الأستاذ البكري.

قطار السكة الحديد والشرق

ها هو صاحبنا يطل من نافذة القطار بالدرجة الثانية علي المحطات هذه هي

محطة القوز وقريب منها قريته (قندتو) رابضة بالقرب من شاطئ النيل الشرقي تليها شندي نقطة انبثاق الطفولة والذكريات وتلك المدرسة الشمالية التي غادرها عام ١٩٣٥م وقد سرح الطرف نحوها بعد مضي ٦ أعوام وفي المساء شهد الدامر وعطبرة لأول مرة ثم انطلق القطار نحو الشرق وسري الليل كله وهو يبعث الضجيج والعجيج والركاب بين متحدث ومنصت وغاف وآخر غالب النعاس وفي الفجر كنا عند (صمت) التي قيل أن الذاهبين بالسيارات إلي أركويت ينزلون فيها وقال آخر بقيت أمامنا سنكات التي ينزل بعدها في جبيت (ولدنا) هذا فشعر (ولدنا) هذا علي حد تعبير ذلك العم بشئ من الارتياح وشئ من الرهبة في آن واحد: الارتياح لأنه قد أوشك أن يستجم من عناء تلك الرحلة الطويلة التي بدأت أمس صباحاً من محطة الخرطوم وها هي شمس اليوم الثاني تشرق عليه في جبيت بعد ساعة أو أقل، والرهبة لأنه سيلتقي بمن لم يشاهده أو يعرفه من قبل، المدينة وموظفي المكتب، وأهل البلدة، فهو لايعرف منهم أحداً..

نزل صاحبنا في المحطة وودع أصحاب السفر الذين كان معهم في (قمرة) الدرجة الثانية وحمل حقيبة خيراً من تلك الشنطة الحديدية التي حملها من شندي إلي أمدرمان عام ١٩٣٥، ثم سأل عن (العفش) الخاص به وهو عبارة عن قطعتين لا ثالثة لهما بعد الشنطة هما (عنقريب) مخرطة ومرتبة، قال له موظف السكة الحديد يمكن أن تحضر لاستلام عفشك (صحبة راكب) بعد نصف ساعة فقط وأحضر معك (بوليصة الشحن) وقد حمد الله علي ذلك لأن نصف الساعة هذا سيمكنه من زيارة مكتب البريد والبرق والتعريف بنفسه وإعلان وصوله. رحب به وكيل البوستة صديق أحمد وزميلاه مدني الطاهر الشبلي

وديمتري تادرس وأخذه أحد الزميلين إلي (الميز) فتذكر كلمة الأستاذ السيد الكبري والتحذير من (الميزات) وكان الميز منزلاً نظيفاً لا يبعد عن المكتب أكثر من ٤ أو ٥ أمتار.

قال له الوكيل والزميلان يمكنك بعد إحضار عفشك أن تأخذ حماماً دافئاً لتنفض عن جسمك غبار السفر وتأخذ نومه مريحة ولك أن تحضر للمكتب في المساء أو في صباح الغد فشكرهم وتوسم فيهم أنهم أناس طيبون فكانوا فعلاً عند حسن ظنه ولكنه بدأ العمل منذ أمسية ذلك اليوم أما المنزل الحكومي النظيف والذي يتكون من ثلاث غرف وصالون وحوش فهو ميز فعلاً به موظفا البريد والبرق وموظفان آخران من الأرصاد الجوي وأصبح المنزل بعد حضور صاحبنا يضم خمسة أشخاص (عزابة) أما الوكيل فرب أسرة وله منزل خاص.

جبيت الصغيرة الجميلة

كانت جبيت مدينة صغيرة جميلة بها مكاتب السكة الحديد والمهندسين التابعين لها ومنازل موظفيها وعمالها وقد خصص جزء صغير للغاية لمصلحة البريد والبرق يتكون من مكتب البوستة ومنزل الوكيل ومنزل الموظفين والمنازل كلها مبنية بالطوب الأحمر والحجر وعلي مستوي جيد حقاً، وبعد فترة أقامها صاحبنا بجبيت الحقت بمكتب البريد، والبرق كبانية تليفونات سر أهل المدينة من تجار وموظفين بإنشائها لأول مرة حيث أنها أتاحت لهم فرص الاتصال بمناطقهم وأهليهم في أقاليم السودان المختلفة كما يسرت للتجار اتصالات العمل بالعاصمة وبورتسودان وعطبرة والدامر وغيرها وكان في جبيت ناد جيد من المباني الحكومية خصص للموظفين يجتمعون فيه مساء لممارسة بعض الألعاب الرياضية وألعاب التسلية الورقية ويجلس فريق منهم إلي جانب الراديو

لسماع الأخبار والأنس هذه هي الدائرة الحكومية حول محطة السكة حديد وتقع إلي غربها منازل التجار فالسوق كدائرة ثانية أما الدائرة الثالثة فهي منازل (الهدندوة) وهي بسيطة للغاية وتبني من الخشب والصفائح.

الجبال والأراك والشبورة

أما وضع جبيت كلها كما أبدعته الطبيعة فهو أرض تعشقها الجبال كما يعشقها الأراك ثم يغطيها إلي جانب البشر سماء ملبدة بالسحب والغيوم والتي كثيراً ما كنا نراها تغطي النصف الأعلي من جبل (إربا) من الناحية الشمالية لجبت.

تلك إذاً هي الجبال وتلك هي غابات الأراك النضيرة الشديدة الأخضرار وخلفها سلسلة من الجبال والصورة في واقعها تعكس أن جبيت تقع علي واد مستطيل من الشمال نحو الجنوب وبين سلسلتين من الجبال سلسلة شرقية وأخري غربية وكانت تقع جنوب غرب جبيت معسكرات للجيش الإنجليزي ومستشفي عسكري في سفح الجبل وقد كتب علي الجبال اسم ذلك المستشفي (General Hospital) (59) المستشفي العام رقم (59) باللغة الإنجليزية وبحروف كبيرة يستطيع الناظر إليها قراءتها من بعيد ويبدو أن سبب وجود هذه الوحدة العسكرية الإنجليزية متعلق بالحرب العالمية الثانية التي سبق الحديث عن جانب منها وهكذا يعرف المستعمرون دائماً اختيار الأمكنة الأجمل والأروع.

كان الطقس في جبيت رائعاً حقاً فهي ليست مرتفعة كمنطقة صَمَتْ وسنكات واركويت كما أنها ليست منخفضة كمنطقة بورسودان لذا فهي تشكل الاعتدال في الطقس والمزاج والحياة. فليس فيها البرد المعروف في المناطق المرتفعة ولا الحر المعروف في المناطق المنخفضة وبالرغم من ذلك كله ففيها الرطوبة التي

تنزل ليلاً حتي أنها تتحول إلي قطرات من الماء لذا فلا يجرؤ أحد علي النوم تحت سقف السماء في الصيف كما هي الحال عندنا في المدن والقري التي تقع علي النيل أما في الشتاء فهي تعتبر قطعة سياحية لأنها من بلاد الشتاء المطر حيث يخالط البرد دفء المطر وكثيراً ما تتوقف المطر في الصباح وتخلفها في الضحي (الشبورة) التي تشكل حبات مطر صغيرة للغاية لا تتبلل منها الملابس وتكسب الروح الانتعاش والنشاط وتصحبها نسمات باردة من الهواء لها حلاوتها ونشوتها ولها في الأفق وعلي الفضاء منظر أبيض خفيف كالضباب ولكنه ليس كثيفاً مثله إلي الدرجة التي تنعدم فيها الرؤية.

حياة السعادة والاستقرار

شعر صاحبنا بسعادة لا نظير لها في جبيت المكتب والمنزل يكادان يلتحمان وساعات العمل الصباحية ست من الثامنة إلي الثانية بعد الظهر وساعة واحدة في المساء من السادسة إلي السابعة ولا حاجة لوسائل المواصلات ولا طريق يأخذ جزءاً من الزمن بين المكتب والمنزل إذ لا تفصل بينهما كما سبق القول إلا مسافة ٤ أو ٥ أمتار وبين الموظفين والتجار علاقات ودية وحميمة وفي النادي متسع للجميع ولم يمضي علي صاحبنا أكثر من نصف السنة حتي كانت له علاقاته الوطيدة الشاملة وكان للتجار ثلاثة أبناء سماهم الهواشم، هاشم إبراهيم الصافي، هاشم علي التوم، هاشم صديق، كانوا أصدقاءه لتقارب السن قد جاء إلي جبيت وهو في بداية السابعة عشرة وانقضت السادسة عشرة وهو في التعليمخانة كان يشارك الجميع في جبيت أنشطة الحياة الاجتماعية ولكنه كانت له هواية واحدة انفرد بها هي النزهة في العصر يومياً في خمائل الأراك ومحاولة تسلق الجبال إلي مسافات لا تبتعد كثيراً عن السفح وقد

اشترك معه في نزهة التسلق بعض الموظفين الشبان الذين تتقارب أعمارهم وأمزجتهم ولكن مثل هذه المشاركة الجماعية لم تكن تحدث إلا في مرات نادرات وحتى أصدقاءه الهواشم لم تكن هذه الهوايات تروق لهم ربما لأنهم ألفوا تلك المناظر الطبيعية منذ بداية حياتهم في جبيت فأصبحوا يرون فيها أمراً عادياً لا يشد الانتباه..

الحلقة الخامسة عشره

الخريجون يكونون أول لجنة فرعية للمؤتمر في جبيت والتقارير السرية تلاحقهم والشعراء السودانيون الكبار أمثال توفيق والتني وآخرين تفتنهم الطبيعة في جبيت

أخذ تفاعل العلاقات بين صاحبنا وأصدقائه من الموظفين يزداد يوماً بعد الأخر وظهر بينهم كصاحب نشاط اجتماعي ونشاط ثقافي في نادي جبيت فقد ألقي محاضرتين أو ثلاثاً في الوطنية حينا وفي الأدب حيناً آخر ثم أخذ يتشاور مع مجموعة أكبر منه سناً ولكنه كان يبدي معهم مشاركة يقدرونها وكان الموضوع تكوين لجنة فرعية للمؤتمر في جبيت «مؤتمر الخريجين» فأهتم بالقضية فتحي عبد الغفار نائب باشكاتب الهندسة فأقنع كبار الموظفين بالمدينة وكذلك التجار وكان علي رأس الموظفين باشكاتب الهندسة فأقنع كبار الموظفين بالمدينة وكذلك التجار وكان علي رأس الموظفين باشكاتب الهندسة محمود الشناوي من عائلة الشناوي بك أصحاب القصور التاريخية في سواكن وسرعان ما أقيم اجتماع عام وانتخبت اللجنة وكان علي رأسها الشناوي كما أذكر وكان السكرتير فتحي عبد الغفار ونائبه صاحبنا وأمين الصندوق من التجار وفتح في الاجتماع العام الأول باب التبرعات فانهالت أموال طائلة لم يكن في الحسبان أنها يمكن أن تصل إلي ذلك الحد. وكتبنا إلي المركز العام للمؤتمر في أمدرمان ونشرت الصحف خبر الاجتماع والتبرعات وأسماء أعضائه فكانت تلك بداية لنشاطنا الوطني في تلك المدينة الصغيرة النائية في شرق السودان واتصل بنا من أهل جبيت عمر أبو أمنه ومن أهل سنكات هاشم محمد سعد وهما من

أقطاب الوطنيين الأشقاء بالمنطقة كما هما من أقطاب الختمية فسايرا حركتنا وأعلنا استعدادهما لأي دعم نحتاج إليه.

الشعر وبداية الطريق

وبدأ أديب جبيت يعالج الشعر ولكنه كان يكتب ويمزق ما كتب لأن ما كتبه لم يكن يرضي طموحه وهو الذي قرأ أشعار المتنبي وشوقي وحافظ والرصافي والزهاوي وتوفيق صالح جبريل والبنا وأحمد محمد صالح وصالح عبد القادر والتجاني يوسف بشير وغيرهم فأدرك الهوة السحيقة التي كانت تفصل ما بين ما كتب وما قرأ.. ولكنه في إحدي المرات كتب قصيدة لم يرض عنها كل الرضا ولكنه أحس بأن مستواه فيها قد تحسن كثيراً فلم يمزقها وعرضها علي البعض من أصدقائه فأستحسنوها ولكنهم لم يكونوا أدباء ولا شعراء فضلاً عن أن يكونوا نقاداً فاعتبر ثناءهم مجرد تشجيع هم مشكورون عليه علي كل حال.

وهو الآن لايذكر من القصيدة إلا مطلعها الذي قال فيه وهو يخاطب جبال جبيت.

جبالَ جبيتَ عالية المتونِ

أفيقي من سكوتك حدثيني!

وظل يواصل الكتابة ولكنه يمزق بعضها ويعرض بعضها الآخر علي الأصدقاء فيجد الاستحسان والتشجيع ولكن فاقد الشيء لايعطيه.

وسليمان أحد موظفي السكة الحديد صفق بيده معجباً حينما استمع إلي بيت الشعر وقال لصاحبنا: لقد أقمنا بين هذه الجبال منذ سنوات فلم نهتم بأمرها حتي ولم نمعن فيها النظر وجئت أنت منذ أشهر قليلة فأخذت تنظر إليها وتفكر فيها ثم تريد منها أن تحادثك وتحادثها؟

المتنبي والمقارنة بين البداوة والحضارة

كانت هذه الفترة السابقة في جبيت جادة بكل ما تعني هذه الكلمة فهي مقسمة في حياة صاحبنا بين القراءة والكتابة والأنشطة الوطنية والاجتماعية ولكن صاحبه (الطيب) من مصلحة التليفونات كان يدعوه للترفيه؟ علي حد تعبيره وأين الترفيه؟ فأجاب الطيب في فريق العرب خلف السوق وماذا ستجد؟

نجد البنات، نسمر، نستمتع نشرب القهوة.. إلا أن صاحبنا اعتذر لصديقه الطيب.. ولكن الطيب ظل يلح يوماً ويوماً وأسبوعاً وأسبوعين وفي المرة الأخيرة حمل الطيب القصير العريض الجسم صاحبنا الخفيف الجسم لنحافته علي كتفه وأقسم ألا ينزله إلا بعد أن يصل إلي الدار التي اعتاد زيارتها وحين ذاك رضخ صاحبنا للعرض مرغماً فأنزله الطيب ومشيا سوياً. لقد استقبلتهما (ت) استقبالاً ودياً حاراً وأخذت تسأل عن الضيف الجديد فأخبرها الطيب وبدأت تدخل وتخرج لإعداد القهوه وصاحبنا يتابعها بذهول فسأله صديقه كيف تري هذا الجمال فأجاب إنها تاجوج الشرق التي سمعنا عنها وقرأنا وجه دقيق القسمات، صوت يقطر حلاوة صدر بارز، خصر نحيل للغاية يشده كفل خصيب، فضحك الصديق وشعرأن صاحبنا قد وقع في الفخ وكان مسروراً بهذه النتيجة كانت (ت) علي عادة البدويات تلبس ثوباً أحمر اللون يغطي الرأس وبقّية الجسم كما يلتف جزء منه حول ذلك الخصر النحيل وتتجانس مع ذلك الثوب الأحمر الحلي الذهبية فتبدو حمراء مثله ثم جلست (ت) وهي تقلي البن ثم تنتقل الي مرحلة «المدق» فشكل إيقاعه الموسيقي الرنانه وتطلق خلال ذلك ابتساماتها فيفتر فمها الصغير عن ثنايا ناصعة البياض وتتوالي ضحكاتها وهي تترقرق وبعد زمن طويل عقب ذلك التاريخ وقف صاحبنا علي بيت من

الشعر لايذكران كان من مجموعات الجاحظ في البيان أو التبين أو ديوان الحماسة لأبي تمام أو في غيرهما أو في أخبار النساء لابن تيمية قال الشاعر:

أبت الروادف والثُديُّ لقمصها

مس البطون وأن تمس ظهوا

فهو يصور أن الثديين قد منعا القميص لبروزهما من مس البطن كمامنعت الأرداف القميص كذلك عن مّس الظهر.

تأمل صاحبنا صورة «ت» في جبيت وهي تدخل وتخرج لإعداد القهوة فعلم أن الشاعر لم يكن كاذباً وأن مثل هذه الصورة لم تكن مستحيلة الوجود في بنات حواء خاصة أولئك اللاتي ينتسبن إلي الأعراب ولهم مقاييسهم الجمالية الخاصة.

وعلم أيضاً أن أولئك البدويات لهن تقاليد خاصة تتمثل في شد بطن البنت منذ الصغر بخرقة قماش ومنعها من أن ترقد علي ظهرها لكي تتحقق لها عندما تكبر ميزتان: الأولي أن يدق خصرها ويبرز صدرها والثانية أن ينمو ردفاها لعدم ضغط الفراش عليهما!!.

وكان صاحبنا يشاهد البدويات في عرض الطريق وفي السوق وبعضهن علي النوق التي لها بدورها لون يميل إلي الاحمرار الخفيف فالمناظر كلها حمراء أو شبه حمراء وذكر تلك الليلة التي اضطره فيها صديقه الخبيث الطيب إلي زيارة البدويات فأحس وكأن المتنبي كان معهما أو أنهما كانا معه في زياراته الليلية للبدويات منذ أكثر من ألف عام فأسمعه يقول:

من الجآذر في زي الإعاريب

حمر الحُلي والمطايا والجلابيب

ويقول:

كم زورة لك في الإعراب خافية

أدهي وقد رقدوا من زورة الذيب

إنها اللوحة نفسها وقد فصلت بين عهدها ومكانها في العراق وربما في بادية السماوة بالتحديد وطن المتنبي في شبابه وبين عهدنا ومكاننا في شرق السودان مئات الأعوام وآلاف الأميال ولكننا جميعاً عرب وأعراب وأعاريب ولايقف المتنبي عند اللوحة الأولي وحدها وإنما يرسم لوحة ثانية للمقارنة بين الحضريات والبدويات اللائي يحبهن ويفضلهن علي الحضريات لسبب بسيط ووجيه هو أن جمال البدويات طبيعي ولسن بحاجة لجلب أدوات التجميل من مساحيق وخلافها كما أنهن لايتصنعن الدلال في المشي أو في الكلام وإنما يرسلن أنفسهن علي سجيتها فيبدو الجمال الطبيعي فيهن اكثر روعة وتأثيراً.. قال في شعره الخالد:

ما أوجه الحضر المستحسنات به

كأوجه البدويات الرعابيبِ

حسن الحضارة مجلوب بتطرية

وفي البداوة حسن غير مجلوبِ

أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها

مضغ الكلام ولاصبغ الحواجيبِ

وبالإضافة إلي حديث اللوحتين فهناك سؤال تستدعي الإجابة عليه البحث والدراسة وهو هل قدم شعب البجة إلي شرق السودان من العراق؟ أو بادية السماوة بالتحديد إن كلمة البجة والبجاة والبجاوية وقد وصف بها المتنبي النوق

البجاوية وإعجابه بهن قد وردت بدورها في ديوانه قبل ذلك حمر الحلي والمطايا والجلابيب كما في شرق السودان تماماً فما هي العلاقة؟.. فالمسألة بحاجة إلي الباحثين والدارسين كما سبق القول.

ومن جانب آخر فإن طائفة من شعرائنا في السودان قد فتنوا بالطبيعة الساحرة في جبيت كتوفيق صالح جبريل وهو يقول:

أنسيت نضرة أركويتٍ

والخمائل في جبيتْ؟

ويوسف مصطفي التني وهو ينظر من نافذة القطار إلي محطة السكة الحديد بجبيت:

صحت الطبيعة فأنتبه

ما بال عينك ناعسه

هذي جبيت وقد بدت

في فتنة متجانسة

وغيرهم كثيرون

الحلقة السادسة عشره

في الأربعينيات كان الحديث عن مؤتمر الخريجين وإنشاء اللجان يعني السياسة؛ والموظفون الوطنيون بصفة خاصة لابد من أن يدفعوا الثمن؛

كيف وادي الأراك والغابة الخضراء والرمل والجبال الجونُ.
والسحاب الركام والأفاق الغائم والطل والنهار الضنين
والنسيم البليل يعبر في رفق فتنساب إذ يمر الشجون
والليالي بذي الأراك وبدر أنهكت صَنوءَهُ الحبيب الدجون

هذه الأبيات كانت من أصداء الذكريات وهي لايمكن أن تصف روعة الطبيعة الساحرة الفاتنة في سنكات كما شهدها لأول مرة وهو منقول إليها من جبيت إنها تعطي بعضاً من كل فالطبيعة في سنكات كانت أوسع وأروع بكثير كان ذلك في عام ١٩٤٣م.

في الصباح تتكثف (الشبورة) في سنكات في فصل الشتاء وتتواري الشمس خلف السحب المتراكمة والقريبة من الأرض حتي تراها علي رؤوس الجبال وهي بيضاء صافية رآها صاحبنا علي هذه الصورة فوق قمة جبل (إربة) شمال جبيت عندما كان هناك ورآها صاحبنا علي صورة أكبر وأشمل فوق قمم جبال سنكات وتستمر هذه المناظر المبهجة خلال الظهر والعصر وحتي المغيب.

أما الأرض فهي علي ثلاثة أقسام حجري وهو القسم الأكبر ورملي وهو الذي يليه في السعة وأخضر وهو الوديان التي تغطيها خمائل الأراك تظل هذه الأرض وهي تتقبل عطاءً سخياً من السماء في فصل الشتاء الحجارة تغتسل يومياً والأراك يشرب ويشرب فيزداد نموا واخضراراً وشذي فتسعد بمنظره

العيون وتتنسمه الأنوف كما تتميز نكهته في السواك وقد هصرت أغصانه لهذا الغرض وهي خضراء ندية أو أجتثت جذوره لهذا الغرض أيضاً وقد وصفت الأخيرة طبياً بأنها تشتمل علي عصارة تقضي علي كافة الأدواء المسببة لأمراض الأسنان.

أما ليل الشتاء في سنكات فهو يضيف شيئاً من الرهبة فالسحب وقد تلفعت برداء أسود واقتربت من الأرض كما هي الحال في النهار فإنها لا تسمح للضوء بأن يتسلل إلي الأحياء لا من القمر ولا من النجوم خاصة وأن الكهرباء لم يكن لها وجود ملحوظ بعد في الأربعينيات ولكن الجو البارد النديان والنسمات التي تهب تغمر الأجسام بالحيوية والنشاط فما يعوق ذلك الظلام علي كثافته حركة الناس.

كانت سنكات بدورها مدينة صغيرة المركز ومحطة السكة الحديد ومكتب البوستة ومنزل المفتش البريطاني النائي المنعزل ثم تأتي منازل الشريفة مريم الميرغنية وهي جدة السيد علي الميرغني ولها حيّ قائم بذاته تسكنه الحاشية الكبيرة قريباً من مكتب البوستة ثم الأحياء التي يسكنها التجار والموظفون وعامة أهل البلد فالسوق.

ووسط السوق أنشئ في ذلك العهد ناديان الأول نادي توفيق والثاني نادي الأراك الأول لموظفي الحكومة والثاني لأبناء البجة ولكن الاتصال بين الناديين قائم ومتبادل خاصة أنه لم يكن يفصل بينهما إلا الشارع.

البداية في سنكات

ودع صاحبنا جبيت واستقبل سنكات في إحدي أمسيات الاشهر الأولي من عام ١٩٤٣م ولم يستغرق السفر بالقطار نصف الساعة وأخذ مقعده في الصباح

التالي بين أسرة المكتب الجديد الذي نقل إليه وهو يذكر إلي اليوم الوكيل «ص» «ع» ونائبه يوسف مصطفي الذي هومن أهل الجيلي قال له الوكيل طبعاً تعرف أنك نقلت إلي هنا للتدريب علي عمل البريد من الناحية التطبيقية لتحصل علي تقرير يفيد أنك أصبحت مؤهلاً في هذا العمل وأنك ستقوم بالإشراف علي قفل أكياس البريد المتجهة نحو بورتسودان من جهة ونحو الخرطوم من الجهة الأخري وتسليمها للوكلاء السفريين بالقطارات من الجهتين كما أنك ستتسلم منهم أكياس البريد التي تحمل عنوان سنكات وهذا يقتضي علمك بمواعيد القطارات وذهابك لمحطة السكة الحديد وبصحبتك ساعي المكتب الذي سيحمل لك الأكياس الذاهبة منا والقادمة إلينا وهكذا شرح له الوكيل المهمة التي نقل من أجلها ألي سنكات فباشر عمله بروية وتثبت ولكنه لمس بعد فترة قصيرة أن الوكيل لا يرتاح إليه لسبب لا علاقة له بالعمل وأن خلافاً في الرأي كان ينشب بينهما في مسائل خاصة بالحركة الوطنية في السودان وشخصياتها البارزة ونظرة الإنجليز وتقويمهم لتلك الحركة ولتلك الشخصيات فكان رأي صاحبنا ضد رأي رئيسه الوكيل لأنه كان أقرب إلي أجواء تلك الحركة وروادها من رئيسه الذي كان دائماً يبدي رأياً فطيراً لايدعمه برهان ولادليل كما أنه فيما بدا لصاحبنا رجل لايقرأ ومن هنا فهو يلقي الكلام علي عواهنه وقد اغتبط صاحبنا كثيراً برأي نائب الوكيل يوسف مصطفي الذي كان في أكثر المواقف يتفق معه ويخطئ رئسهما الوكيل وهو رجل نوبي فاتح اللون من صعيد مصر كان آنذاك يعمل بالسودان والزميل يوسف رحمه الله كان مستنيراً وهو والد الدكتور الواثق الأستاذ بجامعة الخرطوم هكذا كانت الحياة في المكتب الذي أوشكت فترته التدريبية أن تنتهي ولحسن الحظ فإن النهاية كانت سعيدة لأن الوكيل بدأ يري

الصواب في أراء مرؤوسه الصغير سناً ووظيفة وعاش فيما تبقي من الأشهر قبل مغادرته لسنكات علي وفاق تام وفي زمالة حميدة وسنرجع لهذه الفترة قبيل نهاية هذا الفصل لأن هناك مسألة أكثر أهمية من البوستة والتلغراف والوكيل كانت تشغل بال صاحبنا وكان ما أن يغادر المكتب بعد ساعات العمل حتي يبدأ سعيه في سبيل إنجاز المهام المتعلقة بها فما هي؟

لجنة المؤتمر الفرعية بسنكات

لعل القارئ يذكر أن صاحبنا قد أسهم بقدر كبير في تكوين أول لجنة فرعية للمؤتمر في مدينة جبيت بعد تحريكه للفكرة التي كانت قائمة قبل وصوله الا أنها ما كانت تتحرك إلا لتتوقف وحينما صدر الأمر بنقله إلي سنكات كان رفاقه في اللجنة بجبيت يحثونه علي التعرف بسرعة إلي شلة الموظفين بمدينته الجديدة وتلمس مشاعرهم الوطنية ليفيد من البعض الذي يأنس فيه الفائدة للتشاور معه في تكوين لجنة فرعية للمؤتمر في سنكات وأن يحيط تحركاته ومحادثاته بالحذر والتريث خاصة وأن الموظفين لم يكونوا كلهم علي شاكلة واحدة في إقبالهم علي العمل الوطني فمنهم من يتهيبه خوفاً من البطش الاستعماري آنذاك وإن كان ذلك البطش يبدو علي نسب متفاوتة وقليلاً ما كان يصل إلي السجن أوالفصل عن العمل فمن صوره التسجيل في القائمة السوداء وربما قبله التحذير والتنبيه كتلك الحالة التي تعرض لها صاحبنا بالتوقيع علي تحذير من العمل السياسي بالنسبة لموظفي الدولة كما حدث له وهو يوقع منفرداً علي منشور رسمي في جبيت وهو بعد موظف صغير تحت التمرين هذا إلي جانب ما يخشاه بعض الموظفين من إيقاف الترقية أو العلاوة السنوية أو النقل لمواقع الشدة كما كانوا يقولون ولكن كان هناك بين الموظفين فئة خطيرة علي قلتها وندرتها وهي التي

تقوم بعملية التجسس علي الزملاء وكتابة التقارير السرية للمفتشين البريطانيين خاصة في الأقاليم عن أنشطتهم الوطنية لذا فقد حرص أعضاء اللجنة في جبيت علي النصح لهذا الفتي الصغير من الوقوع في الفخ وهم يكلفونه بالعمل مع الصفوة الوطنية في سنكات علي تكوين أول لجنة فرعية لمؤتمر الخريجين.

وهو لايزال يذكر حتي اليوم وبعد مضي ستين عاماً كاملة حديث زميله فتحي عبد الغفار رحمه الله بأن يعمل بكل روية وحذر وأن يتصل به تليفونياً كما وعده بأنه سيحضر إليه في سنكات للوقوف علي خطواته ودعا له بالتوفيق وكان فتحي هوسكرتير لجنة المؤتمر بجبيت.

التخطيط والإعداد

كانت البداية في سنكات تستوجب التخطيط الجيد والحذر ثم الإعداد بحكمة وبراعة وكانت هناك أسئلة كثيرة مع من يبدأ صاحبنا التشاور وبمن ومع من تبدأ الخطوات العملية أنها مهمة كبيرة لشخص غريب يهبط في المدينة وليس له فيها شلة من المعارف ناهيك بالأصدقاء ثم هو لايزيد عن كونه موظف صغير ليس له خطورة أو أهمية لكي يضطر الآخرون لمجاملته زد علي ذلك أنه سيعمل بالسياسة في حين أن السياسة التي يتخوف منها الآخرون ما هي إلا مجرد انتخاب لجنة وطنية فرعية لمؤتمر الخريجين.

قال صاحبنا: إلي هنا نتوقف وندعو القارئ إلي اللقاء في الكلمة التالية ليري أجوبة الأسئلة السابقة وكيف تمت علي صعيد عملي موفق.

الحلقة السابعة عشرة

خورشيد بسنكات الإداري الكفء والمثقف والسياسي اعتبر مذكرة المؤتمر ١٩٤٢ سابقة لأوانها!

وآراؤه الشجاعة هيأت لخصومه اتهامه لدي الإنجليز بالنازية ولكن الله كتب له السلامة

أوردنا سابقاً أن هاشم محمد سعد كان من شخصيات سنكات التي اتصلت بالمؤتمرين في جبيت وأعلنت استعدادها لدعمهم، لذا فإن صاحبنا رأي أن أول من يفاتحه في موضوع تكوين اللجنة بسنكات يجب أن يكون هو قبل غيره، وقد كان الاتصال به وثيقاً منذ أن نزل بالمدينة لأن مرحلة التعارف بينهما قد بدأت في جبيت علي النحو الذي سبقت الإشارة إليه .

قال هاشم لصاحبنا:

الفكرة عظيمة ولكن المخاطر التي تحف بتنفيذها جسيمة فالوضع هنا ليس كجبيت فسنكات، إدارياً مركزية مفتش بريطاني ومامور سوداني، وضابط بوليس، وباشكاتب وعدد من الموظفين، ولاندري إذا استثنينا المفتش البريطاني، من سيكون معنا ومن سيكون ضدنا.. ولكن دعني أفكر وستتحقق بعون الله هذه المبادرة الكريمة .. قال صاحبنا:

وفي اليوم التالي التقينا أنا وهاشم - رحمه الله - وهومبتسم وإن كانت تلك من سماته في معظم الأحوال وبدأ الحديث في الموضوع:

المأمور المتهم بالنازية

مأمور المركز، محمد الحسن خورشيد، إداري واسع العقل، وطني موثوق به،

اتهمه البعض بأنه نازي ولكن الله سلمه من تلك التهمة الخبيثة التي كانت ستودي به، فاتحه في الأمر كأنك تطلب استشارته وبعد ذلك سنعود للحديث عن الخطوة التالية:

قال صاحبنا:

حينما حللت بسنكات كنت أعلم أن المنزل الذي علي يميني هومنزل المأمور وكان منزلاً فخما بكل المقاييس في ذلك الزمان وأن المنزل المتواضع المشابه لمنزلي علي اليسار هو منزل علي شاش الجار الذي غمرنا بطيبته ولطفه وكان يحضر لوالدتي وهي تقيم معي اللحم كما يحضره لمنزله يومياً وهو والد الإداري المرموق فيما بعد السيد حامد علي شاش.

نحن في أواسط عام ١٩٤٣م تقريباً والشهر رمضان المعظم، خرجت في العصر أتمشي خارج المنزل في عصر سنكات الغائم الجميل فإذا بي التقي مع المأمور وجهاً لوجه وهو يتمشي بدوره في الساحة ممسكاً بمسبحته سلمت عليه وعرفته بنفسي وقلت إني نقلت إلي هنا من جبيت منذ قريب وكان بودي أن أزورك منذ الأيام الأولي للتعارف مما تقتضيه حقوق الجوار فشكرني ورحب بي وأردفت ولي موضوع مهم أحب أن أستمع إلي رأيك فيه أولاً فإن باركته سرت مع بعض الأخوة فيه فبدأ علي وجهه الاهتمام ثم سألني خيراً إن شاء الله وما هو؟

هو السعي لتكوين لجنة فرعية للمؤتمر في سنكات! فسكت للحظات ثم أجابني. هذا موضوع مهم حقاً وأشكرك لثقتك في شخصي والأمر يتطلب بعض المناقشة ومادمت أنت جئت جاراً جديداً فلا بد أولاً من إكرامك في هذا الشهر المبارك.. غداً أنت مدعو لتناول طعام الإفطار معي وساعتها سيكون

الوقت مناسباً جداً لمناقشة الموضوع بعد الإفطار فقبلت دعوة المأمور شاكراً وفي مساء ذلك اليوم التقي بي الأخ هاشم محمد سعد فأطلعته علي ما تم الاتفاق عليه بين المأمور وبيني فتفاعل كثيراً بهذه المقدمة وقال إنها ستفضي إلي خير إن شاء الله.

خورشيد وآراؤه السديدة

استمع المأمور محمد الحسن خورشيد بعدلتناول طعام الإفطار الرمضاني إلي حديثي باهتمام وإلي تخوفي من أن يكون في المدينة هناس معادون للحركة الوطنية سواء عن طريق طلرغبة أو الرهبة وللأنجليز أعين ساهرة فضحك وقال لي: ولأجل هذا أحببت أن يكون المأثور في الصورة منذ البداية؟.. قلت لا أخفُعليك هذه هي الحقيقة خاصة وأنك معروف في مدينتك هذه بأنك وطني مؤثوق به وإلا لما بدأت الحديث معك!

اعتدل خورشيد في جلسته وحدق في وجهي بعينين واسعتين لمسافة وكانت تلك طريقته في مخاطبة جليسه، يتحدث بعد روية ثم يصمت، ثم يعود للحديث بصورة تشد إليه المستمع وهكذا حتي يفرغ من كلامه.

قال:

ليس هناك شئ يخيف من تكوين لجنة فرعية للمؤتمر في سنكات، فللمؤتمر لجان فرعية في كل مدينة من مدن السودان ومن العيب في حق أهل سنكات إلا تكون لديهم لجنة فرعية وأنت مشكور علي أنك جئت حاملاً معك هذه الفكرة وأنا إذا سئلت فسأقول لرؤسائي هذا الكلام الذي قلته لك الآن وثق بأني سأوفر لكم أنت ومن يعمل معك الحماية الكافية لأنكم لم ترتكبوا جريمة وتعملون في وضح النهار.

ثم سألني ولكن مع من ستعمل ومن الذي عرفت في المدينة وأنت حديث القدوم إليها؟

قلت: أعرف من أهل المدينة رجلاً مهما هو الأخ هاشم محمد سعد وقلة من الموظفين أكثرهم من المعلمين.

قال: وجود هاشم مهم جداً ويمكن أن تبدأوا عملكم علي بركة الله... واستطرد. أريد أن أقول لك برأيي في المؤتمر نفسه:

المؤتمر بدأ بداية عظيمة ونشأ صغيراً وسرعان ما أصبح عملاقاً. لقد نشر الوعي الوطني ثقافياً بسرعة هائلة وأنشأ المدارس وانتشرت لجانه كروافد تمده بالدعم المادي والأدبي وعقد المؤتمرات والمهرجانات ووحد كلمة الخريجين السودانيين في العاصمة والأقاليم وغيرها وغيرها في الفترة من ١٩٣٨م إلي ١٩٤٢م وهي فترة قصيرة للغاية ولكن في نظري أنه أخطأ في تقديمه للحاكم العام عن طريق السكرتير الإداري مذكرة المطالبة بتقرير المصير فكانت عملاً سياسياً بحتاً وهي تمس السياسة الاستعمارية البريطانية في الصميم فمنذ العام الماضي أصبح الإنجليز ينظرون إليه بتخوف وحذر مما يمكن أن يعوق أنشطته الثقافية والاجتماعية العظيمة التي كان يمارسها بنجاح واسع المدي.

وأضاف:

أنا لا أخَطّئ المؤتمر فيما ذهب إليه من حيث المبدأ فهذا يجب أن يكون هدفه الأول ولكن أخطّئه في التوقيت إن الأنشطة التي ظل يمارسها بكفاءة عالية منذ أن أنشأ فكرة يوم التعليم كانت تغزو المجتمع بصورة شاملة ويستجيب لها الشعب السوداني بحماس عظيم فلماذا لم يسر علي مهل في هذه الاتجاهات البناءة ليحقق المزيد من التعليم والاستنارة والوعي لمدي أطول فأطول ويترك

جانب السياسة إلي حين علي أية حال أنا مشفق عليه من الاصطدام بالانجليز وبالتالي تعطيل مسيرته المظفرة!

سمعت هذا الرأي الحصيف لأول مرة من محمد الحسن خورشيد مأمور المركز بسنكات ثم قرأته بعد بضعة أعوام بصورة أو بأخري في بعض الصحف فذكرت خورشيد.. وذكرت قوله لي وهو يودعني عند باب منزله قائلاً: ألم تقرأوا في شعر أبي العلاء المعري:

توقَّي البدور النقص وهو أهلّة

ويدركها النقصان وهي كوامل!

إن المؤتمر قد أصبح قمراً كاملاً منذ عام علي الأقل وأخشي عليه النقصان! ولحظتها وكأني أسمع بيت الشعر لأول مرة مع أني قرأت سقط الزند لأبي العلاء منذ أعوام ومع أن معناه كان بالنسبة لي يشكل قاعدة عامة إلا أن استشهاد خورشيد به في هذا الموقف حدد إلي معناه بصورة أكثر دقة ووضوحاً ثم ودعني علي باب منزله قائلاً:

شدوا حيلكم.. وهنا فأنا معكم!

خرج صاحبنا من منزل المأمور عقب تناول الإفطار الرمضاني والسعادة تغمر وجدانه وما هي إلا خطوات حتي استقر في منزله وأخذ يسترجع مادار بينه وبين المأمور من حديث مطمئن ومبشر.

أيام وأيام

قد يستغرب قارئ الحديث هذه الأهمية التي أضفيناها علي حكاية الخطوات الحذرة التي بدأنا - قال صاحبنا - اتخاذها لمجرد أننا سنسعي لتكوين لجنة فرعية لمؤتمر الخريجين بسنكات لأنه ربما لايدرك ماذا وراءها وما هو تأثيرها

الوطني في أنظارنا والسياسي في نظر السلطة البريطانية الحاكمة في السودان آنذاك.

لقد دوّت أصوات الشباب منذ مطلع الأربعينيّات بنشيد: للعلا للعلا.. وابعثوا مجدنا الآفلا.. ثم النشيد الشعري الفني أكثر منه وقد تلاه زمناً ومطلعه: صرخة روت دمي.. وسيأتي الحديث عنها وعن مؤلفها لاحقاً وللإنجليز الحق في التخوف من هذه الأنشطة الوطنية الثقافية في مظهرها والسياسية في مدلولها.. إنها الإرهاصات الأولي للتطلع نحو الحرية والاستقلال في محيط الوعي الشعبي قبل قيام الأحزاب في منتصف الأربعينيات.

قال صاحبنا لقد استمعت منذ قريب إلي أطفالنا في المدرسة الإعدادية ببحري وأصواتهم ترتفع: للعلا للعلا.. فابتهجت حقاً وسعدت حقاً.. إذن فإن بعض رجال التعليم يحرصون علي إحياء تلك الذكريات المجيدة.. وها هي أصوات هولاء الأطفال تردد اليوم ما كان ينشده أجدادهم منذ أعوام مضت .. فياللأيام كان هذا كله حديث النفس بعد عودتي من منزل المأمور المرحوم محمد الحسن خورشيد وأنا اتشوق إلي اللقاء بالأخ هاشم محمد سعد لأزف إليه الخبر السار وتأكيد المأمور لوقوفه معنا.. فإلي لقاء.

الحلقة الثامنة عشرة

نضال السودانيين بالأمس: العسكريون ضد الفاشية والنازيه والمدنيون ضد الاحتلال والاستعمار

قصة الثعبان الرهيب في طريق «اللاميب» فوق أرض لا يصلها ضوء النجوم حتي ولا ضوء القمر!

في الحلقة السابقة قال صاحبنا: خرجت من منزل المأمور عقب تناول الإفطار الرمضاني والسعادة تغمر وجداني إلي أن يقول: وأخذ يسترجع ما دار بينه وبين المأمور من حديث مطمئن ومبشر.

ويستطرد اليوم أن طرقاً خفيفاً علي الباب جعله يقطع ذلك الاسترجاع فقال في نفسه كن هاشم فكان فعلاً قال صاحبنا فقصصت عليه قصة لقائي بخورشيد من أولها إلي آخرها فابتهج كثيراً وقال لي: لقد وفقك الله حقاً قلت: ثم كيف نبدأ الخطوة الثانية؟ قال: سهلة جداً إن شاء الله ثم واصل حديثه غداً في المساء نذهب إلي (نادي الأراك) معاً. وأنا يعني نفسه سألتقي في النهار ببعض من أثق فيهم من الأخوة المعلمين لأعرض عليهم الفكرة كي يحضروا إلي النادي وهم مهيأون ثم نأخذ مقاعدنا علي طرف في ساحة النادي لأعرفك بهم ليتعرفوا عليك ثم تحدثهم. قلت هذه فكرة عظيمة.

قال صاحبنا: وفي المساء الموعود كنت أجلس بين الأخوة المعلمين ولم أذكر منهم الآن إلا: مختار التوم وشنقولي وعلي. وآخرين حال ضعف الذاكرة وطول الزمن دون الاحتفاظ بأسمائهم مع الأسف، هذا ولم يوفق للحضور الأستاذ عثمان محمد بليّه الذي كان هو ناظر المدرسة الأولية المزدوجة ذات النهرين في

سنكات آنذاك وكان شيخاً مهيباً محترماً رحم الله من توفي منهم وأمد بالصحة والعافية من هم علي قيد الحياة.

قال لي هاشم محمد سعد قبل وصولنا إلي النادي: لا تنسي وأنت تحدثهم عن الدعوة لتكوين اللجنة الفرعية بسنكات أن تذكر لهم حماس السيد خورشيد مأمور المركز ففعلت وكانوا هم أنفسهم بعددهم الكبير علي درجة عالية من الحماس واتفقنا علي أن نلتقي في هذين المكان والزمان بعد ثلاثة أيام علي أن نعمل جميعاً كل في محيطه وبين أصدقائه لنشر الفكرة واكتساب تأييدها والوقوف إلي جانبها حتي إذا ما أعلنا انعقاد الجمعية العمومية في اليوم والمكان المحددين لانتخاب أعضاء أول لجنة للمؤتمر تم ذلك في حجم من الحضور الكبير والمشرف والذي يليق بمكان مؤتمر الخريجين في السودان وقد كانت تحيط به هالة وطنية عظيمة! وأخيراً تم الاجتماع التحضيري بعد الأيام الثلاثة التي خططنا لها عقب نقاش موضوعي متكامل وحماس منقطع النظير لم نكن نحلم بمثله!

انعقد فعلاً الاجتماع العام الذي أسعدنا حقاً الظفر بنجاحه، قال صاحبنا: وكان دوري أن ألقي كلمة موجزة للغاية أشكر فيها الأخوة الذين قام علي أكتافهم ذلك المشروع العظيم وشعب سنكات من التجار والموظفين وعامة أهل المدينة الذين لبوا النداء بتلك الحرارة وذلك الحماس الرائعين، كما خططنا علي أن يتولي الأستاذ شنقولي تقديم من يريد التحدث ثم ننتخب اللجنة الفرعية وقد كنا أعددنا ترشيحاً للأسماء للاستنارة بها وانتخاب من يختاره أعضاء الجمعية العمومية واذكر أنه كان في طليعة المتحدثين باسم أهل سنكات الطالب - لعله كان بكلية غوردون يومها - حامد علي شاش الذي تطرق للحديث عن ماضي

سنكات وتاريخها الوطني والنضالي وذكر عثمان دقنة بطل الشرق. انتخبت اللجنة الفرعة لمؤتمر الخريجين بسنكات فأحسست ساعتها بأني ألقيت عن كاهلي عبئاً ثقيلاً من ناحية المسئولية الوطنية ولكن آثار في نفسي تلك اللحظة حلاوة أن تتحقق الآمال وفي غمرة من الإحساس بالبهجة والإنشراح في اليوم التالي اتصلت تليفونياً بالأخ فتحي عبد الغفار في جبيت ونقلت إليه الخبر السار فقال، هذا انتصار عظيم ولابد من أن أصلكم اليوم لأقضي هذه الليلة معكم ولكي أقف علي كل التفاصيل، فاستقبلناه الأخ هاشم محمد سعد وأنا وحكينا له كلام السيد المأمور محمد الحسن خورشيد فأكبر نجاحنا الذي أحرزناه في أقصر مدة زمنية وضحك كثيراً وقال أنه لايخلو من صحة ولكن المركز العام للمؤتمر وفيه قيادات واسعة الاطلاع لابد أنها رأت ضرورة تقديم المذكرة في ذلك الوقت من عام ١٩٤٢م ثم عقبت علي كلامه. التوقيت كان مرتبطاً بقرب نهاية الحرب العالمية الثانية وعلي الأخص في الجبهة الأفريقية الشرقية التي اشتركت فيها قوة دفاع السودان وسجلت انتصارات باهرة بين مجموعة قوات الحلفاء في أريتريا والحبشة بعد تحرير مدينة كسلا وفي واقعة كرن علي الأخص وأشرت إلي الإشعار العامية والفصحي التي نشرت في الصحف آنذاك عن أبطال السودان والأغاني الشعبية التي انتشرت عن بطولات الضباط السودانيين الشبان حيث لمعت أسماء طلعت والبحاري وحسن بشير وآخرين كما أشيد بقوة دفاع السودان في الإعلام العالمي والبريطاني بصفة خاصة فدهش الأخوان هاشم وفتحي لمعلوماتي هذه فقالا لي لماذا إذن لم تذكر ذلك لخورشيد دفاعاً عن سياسة المركز العام لمؤتمر الخريجين رداً علي انتقاد خورشيد لتوقيت مذكرة تقرير المصير! قال صاحبنا فرددت عليهم: نحن بحاجة

لمؤازرته واختتمت حديثي بأن المؤتمر أحب أن ينتهز تلك الفرصة فيطالب بأن يكون له رأي في عملية تقرير المصير خاصة وأن الشعب السوداني الذي هو ممثله قدم ما قدم من التضحيات مع الدول الحليفة ضد الفاشية والنازية فلا أقل من أن يكافأ بأن تتاح له فرصة المطالبة بتقرير المصير ومعروف أن السكرتير الإداري قد رفض مذكرة المؤتمر بل أعادها إليه كما رفض أن يدّعي المؤتمر صفة تمثيله للشعب السوداني ولكن المؤتمر واصل صموده غير عابئ بالسياسات الاستعمارية وتبودلت المذكرات بينه وبين السكرتير الإداري علي النحو المعروف!

هذا وقد وقع علي المذكرة الأستاذ إبراهيم أحمد الذي كان في ذلك الأوان رئيس المؤتمر وقد سبقه الرئيس أزهري في دورة سابقة ثم تلاه في دورة لاحقة!

التعقيب علي رأي خورشيد

قال صاحبنا: الاختلاف مع رأي خورشيد لم يكن حول المبدأ وإنما كان حول التوقيت فحسب فخورشيد كان يفضل تأجيل الخوض في موضوع المذكرة خوفاً علي فاعلية المؤتمر واستمراريتها كما كان يري وربما سأل سائل: وأنت من أين لك تلك المعلومات وأنت في تلك السن الباكرة العشرين؟ والإجابة هي أننا كنا في (التعليمخانة) مجموعة من الشبان الواعين والمجتهدين الذين يقرأون الصحف السودانية والمصرية ويستمع بعضنا إلي الإذاعات الخارجية ويذهبون لسماع المحاضرات والندوات الثقافية التي كان يعقدها الخريجون وهم أهل فكر وثقافة ويأتي كل منا بما يحصل عليه فنوسع تلك الموضوعات نقاشاً مستفيضاً كما كنا نحرص علي الاطلاع فيما ينشر في جريدة المؤتمربصفة خاصة الأمر الذي أتاح لنا خلفيات ثقافية مبكرة لابأس بها ربما لم يحصل علي مثلها بعض

الأخوة من الموظفين الذين هم أكبر منا سناً خاصة أولئك الذين لايقرأون حتي الصحيفة اليومية لهذا فإن صاحبنا حينما غادر الخرطوم إلي جبيت وبعدها سنكات فقد حل بها وهو علي صلة وثيقة بهذه الموضوعات وبالمؤتمر وأنشطته والحماس للدعوة له ومن ثم فقد اشترك في تكوين لجنتي مؤتمر الخريجين الفرعيتين في المدينتين علي النحو الذي أثبتناه في هذه الحلقة والتي سبقتها.

عود إلي سحر الطبيعة بسنكات

ومرة أخري واصل صاحبنا عشقه للطبيعة في سنكات ولكنه لم يستطع الاتصال بها بصورة يومية كما كان الأمر في جبيت فغابات الأراك والجبال من خلفها في سنكات لم تكن قريبة منه كالحال في جبيت الصغيرة كما أنه واجه أول الأمر مهاماً رسمية أكثر في عمل البريد بسنكت سواء كان ذلك في المكتب أو في استقبال القطارات وقد أسندت إليه المهمة وحده بكاملها بغرض استكمال تدريبه ليصبح فيما بعد مسئولاً حينما تقتضي الظروف نقله إلي أي مكتب آخر خاصة وأن تقريراً سيكتب عنه عقب بضعة أشهر يؤكد بعدها أنه أصبح (مؤهلاً) وهي كلمة كنا نضحك منها كثيراً لأنها أكبر حجماً بالنسبة لنا.

زيارات (اللاميب)

كان صاحبنا وصديقه الكريم هاشم محمد سعد رحمه الله يلتقيان عصراً أو مساءً للآنس وكان هاشم يدعوه في بعض الأمسيات لزيارة منزل أخيه (الأمين) في اللاميب ليشربا عنده القهوة وعجبت لاسم (اللاميب) في سنكات و (اللاماب) علي شاطئ النيل الأبيض جنوب الخرطوم أهي مجرد الصدفة؟ ولعل القارئ يذكر وصف صاحبنا لرهبة الليل البهيم في سنكات بسبب السحب المتدنية في فصل الشتاء الممطر في تلك المنطقة حيث لا مجال علي الإطلاق لظهور النجوم ولا حتي القمر!

اللاميب والثعبان!

في إحدي الليالي والصديقان ذاهبان إلي (اللاميب) عقب صلاة المغرب وهما يتبادلان الحديث شعر صاحبنا بأن شيئاً تحت قدمية يقذفه إلي أعلي في أنتفاضة قوية وعندما تعود قدماه إلي الأرض يتعثر وكأنه مدفوع إلي الأمام ثم يقدر بعد لحظات علي امتلاك حركة جسمه وترجع خطاه إلي وضعها الطبيعي وقبل أن ينقل إلي صديقه هاشم هذه الحركة العجيبة بادره الصديق يسأل وهومنزعج فلان.. مالك ؟ فيجيبه إن قوة شديدة دفعتني أو رفعتني إلي أعلي ثم نزلت وأنا أتدحرج إلي الأمام كما رأيت، وهنا ظهر الأنزعاج علي صوت هاشم:

– أرجو ألا تكون قد شعرت بأية طعنة ولو خفيفة في رجليك أو حتي مجرد خدشة؟

– لا .. لم أشعر بشئ علي الإطلاق عدا ارتفاعي إلي أعلي بقوة ثم هبوطي!

وهنا تنفس هاشم الصعداء وقال الحمد لله ولكنه كان قلقاً للغاية فلم تمض دقيقتان أو ثلاث حتي سأل صديقه مرة أخري هل أنت متأكد أنه لم يحدث أي خدش في رجليك فأجابه صاحبنا أبداً ولكن ماذا يدور بخلدك يا هاشم؟ فأجاب ألم يخطر ببالك شئ عن تلك القوة التي رفعت قدميك إلي أعلي؟.. لا لكني أفكر في أمرها وماذا عساها تكون فأردف هاشم وهو يضحك: الحمد لله علي سلامتك إنك قد وطئت ثعباناً لابد أنه كان ضخماً للغاية!!..

الحلقة التاسعة عشرة

حولية السيد هاشم الميرغني بسنكات والمهرجانات والكرنفالات الشعبية البجاوية المدهشة!

وأخيراً الحنين الي النيل والنخيل بعد خمائل الأراك وروائع الطبيعة في أركويت فاتنه الجبال!!

كانت آخر كلمات المرحو هاشم محمد سعد لصاحبنا حسبما أورده في الحلقة السابقة وهما في طريقهما الي قرية (اللاميب) لمنزل شقيقه (الأمين) في تلك الليلة الحالكه الظلام وحينما وطئت رجل صاحبنا ذلك الثعبان الرهيب، كانت «الحمد لله علي سلامتك! إنك قد وطئت ثعبانا ضخماً للغاية!!

ويواصل صاحبنا اليوم تتمة حديث صديقه هاشم حيث قال: حسب مفهومنا إن الثعبان حينما يريد النوم يرسم دائرة ضيقه بجسمه ويضع رأسه وسطها ثم يلف حولها باقي جسمه حرصا منه علي ضمان سلامة الرأس واستطرد هاشم: ويبدو أن قدميك أو احدهما وقد ضغطت علي رأس الثعبان فلم يستطع ان يفعل شيئاً غير أن ينتفض بشدة لينجو من ذلك الشئ الذي ألقي عليه بثقله، ولو كان رأسه خارج تلك الدائرة لكان لدغك دفاعاً عن نفسه!!

فضحك صاحبنا وقال لصديقه هاشم: سبحان الله، لقد أخفناه بدلا من ان يخيفنا هو وعاد يسترجع الذكريات، كان الحادث في شتاء او ربما اوائل عام ١٩٤٤م فهل سنكات تمتد اليوم نحو (اللاميب)او (اللاميب) تمتد نحو سنكات أم هما اشتركتا في الامتداد نحو بعضهما بسبب تزايد العمران خلال هذا المدي الطويل؟

وهل توجد او تتكاثر اليوم السيارات وأصواتها وأضواؤها لتخيف أحفاد ذلك الثعبان الرهيب علي قارعة الطريق كما كان الأجداد أم ان الحال مازالت هي الحال حتي الآن؟

الحولية الهاشمية والكرنفالات

كانت السيدة الشريفة مريم الميرغنية مقيمة بوطنها سنكات وكانت في كل عام وفي الزمن المحدد تقيم لوالدها السيد هاشم الميرغني الحولية السنوية وكان البجه أهل المنطقة وراثياً يدينون لبيت الميرغني المنحدر من سلالة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ويحرصون علي حضور الحولية والمشاركة فيها عاماً بعد الآخر في حشد ضخم للغاية رجالا ونساء ويشمل ذلك الحفل الديني في اجتماعات الرجال ومن وفد اليهم من اخوانهم الختمية من مختلف البقاع من شرق السودان وبعض مناطق الشمال ومن الخرطوم حيث يؤدون الصلوات والأذكار والمدائح النبوية وفي الختام يقرأون من (مناقب) السيد الميرغني صاحب الحولية وهي عبارة عن سيرة ذاتية عن مولده ونشأته وصلاحه وكراماته.

وكان موظفو الحكومة بسنكات يزورون الشريفة الميرغنية في كافة المناسبات الدينية والأعياد ويهنئونها وقد زارها صاحبنا في إحدي هذه المناسبات مع زملائه الموظفين فوجدها شيخة مسنة تلبس الثياب البيضاء ولا يظهر من وجهها إلا عيناها وقد أعد لها كرسي خاص ووضعت علي جانبيه وأعلاه ستارة تشبه أريكة العرش التي تنصب تقليدياً للملوك فتسلم علي زوارها وترحب بهم بصوت خافت وتسألهم عن أحوالهم متمنية لهم طيب الأقامة في سنكات وتشكرهم علي الزيارة.

أما رجال الهدندوة أو البجة فهم يقيمون في جانب آخر عدا الطقوس الدينية مسابقات الجمال وألعاب الفروسية وهم يحملون السيوف و (الدرق) في جو من الأناشيد الحماسية بلغتهم وبألحانهم الحلوة المتميزة وهكذا تستمر الحولية لعدد من الأيام ولكن الحضور يتناقص عقب اليومين الثاني والثالث حيث يعود التجار ورجال الأعمال من أهل (البحر) كما يسمونهم ويبقي البدو بعدهم لثلاثة أو أربعة أيام أخري وكلهم بالطبع من (الختمية) الطريقة الصوفية التي أسسها الأمام الختم محمد عثمان الميرغني جد المراغنة بالسودان ووالد السيد هاشم صاحب الحولية وهو قد أسس هذه الطريقة في الحجاز في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي وجاء إلي السودان عام ١٨١٧م والتقي بملوك الفونج في سنار ثم تجول في عدد من الأقاليم السودانية وهو يدعو إلي الإسلام وينشر طريقته الصوفية وقد تجول قبل السودان في الحبشة وأريتريا والصومال كما سافر إلي مصر.

إن الجانب الآخر من الحولية كان يشكل كرنفالاً مبهجاً يستمتع به أهل سنكات والبحر الأحمر عموماً وكذلك القادمون من النيل حيث تزخر المدينة سنوياً بذلك التجمع الضخم والذي ينزل كله في منازل الشريفة مريم الميرغنية وساحاتها الواسعة كما يذهب بعض الضيوف إلي منازل بعض شخصيات المدينة ولابد كما هو واضح من ذبح العشرات من العجول والخراف لإطعام تلك الألوف يومياً حيث يتسع كرم الشريفة إلي مالا حدود له!

أما مناظر البجة وهم قادمون من وراء الجبال من مختلف الجهات وقد لبست نساؤهم الأثواب الحمر وهن يمتطين الجمال ثم مناظر تلك الجمال وهي تهبط من أعالي الجبال ومن خلال الوديان يخيل للمشاهد أنهامناظر سينمائية ملونة لولا

أنها حقيقة يوقن بها الناظر إليها ويعلم أنها وفود قادمة للمشاركة في الحولية!

وبعد.. فمازال صاحبنا يستعيد تلك الذكريات بكل أشكالها وألوانها وقد مضي عليها حتي كتابة هذه السطور حوالي الخمسين عاماً وكأنها تمر أمام ناظريه وتثير وجدانه هذه الساعة وأنه ليتساءل هل مازالت حولية السيد هاشم الميرغني تحفل بتلك الصور المهرجانية وهل بقيت سنكات علي تلك الصورة الشاعرية الملهمة؟ إن ناموس الحياة بكل ما يحفل به من التغيير والتبديل وربما التشويه يقول له: لا ... فتلك أيام خلت!

إلي لقاء يا سنكات!

الحياة في مكتب البريد والبرق تسير علي وتيرتها ولكن تطوراً كبيراً طرأ علي العلاقات بين الوكيل والموظف الصغير فقد أصبحا صديقين ودودين وكان يوسف مصطفي سعيداً بهذا التطور حتي أنه قال للوكيل ذات يوم أمام صاحبنا: ألم أقل لك منذ الأيام الأولي لوصول هذا الشاب أنك لم تعرفه بعد؟

ويذكر صاحبنا أنه بالرغم من سعادته في سنكات كان ينتابه من حين إلي آخر حنين إلي النيل وإلي الشاطئين ومدنهما وقراهما فأمسك في إحدي المرات بالقلم وهو ينقل هذا الشعور إلي أستاذه السيد البكري ولكن بلغة الشعر وهو شعر لم يكن صاحبنا يرتاح لمستواه الفني ولكنه ظل يحاوله من وقت إلي آخر وهو لم يعد يذكر من القصيدة التي كتبها إلي أستاذه غير شطرة بيت واحد يقول فيها وهو يعني نفسه:

(لياليه في سنكات سُهدٌ إلي سهد) أما مضمون القصيدة كله فهو الحنين إلي النيل كما سبق القول وبعد ثلاثة أسابيع تقريباً جاءه خطاب من الأستاذ

يخطره فيه أن فترته في سنكات قد انتهت وأن تقريراً جيداً قد كتب عنه كما علم من الجهات المختصة برئاسة المصلحة كما سيصله قريباً خطاب بمنحه أول إجازة يسافر بعدها إلي أبي حمد منقولاً إليها وقد شفع الخطاب بأبيات من الشعر يقول فيها مجارياً قصيدة تلميذه الدالية:

أبو حمد مثواك بعد إجازة

وذاك يقين ليس ضرباً من الوعِد

وضحك بعض أصدقاء صاحبنا من كلمة (مثواك)وقالوا له أن استاذك قتلك والحقيقة أن المثوي هو محل الإقامة للأحياء لا للأموات.. وثوي الشخص أقام في لغة القواميس والأدب ولكن الكتاب عادة ما يقولون ورقد فلان في مثواه (الأخير) فأنصرفت (مثوي) إلي مكان الموت خطأ اللهم إلا إذا أضيفت إليها كلمة (الأخير).

هذا استطراد عارض ونعود إلي خطاب الأستاذ وقصيدته فقد قرأهما تلميذه وسعد بهما إلي أقصي حد وبعد يومين أو ثلاثة أخطر صاحبيه في المكتب الوكيل ونائبه أنه سيتلقي قريباً خطاباً بالإجازة ثم النقل إلي أبي حمد فعجب الوكيل وأخذ ينظر إلي نائبه نظرة متسائلة ثم قال لصاحبنا: أنتم جيل خطير.. أنا الآن علي أبواب المعاش وأبواب الستين ولم أتلق طيلة خدمتي في البريد والبرق شيئاً عن مصيري إلا مايفاجئني به الخطاب الرسمي.. والمفروض أنا الذي أعرف قبلك ما سيكون بالنسبة لك!

فضحك يوسف وضحك صاحبنا وقال يوسف للوكيل إن هذا الشاب لو بقي معنا كنت ستكتشف فيه الكثير.. فعقب الوكيل: علي رأيك.. ولم أشأ قال

صاحبنا: إلا أن أترك الوكيل في حيرته.. أما صديقي يوسف فقد أطلعته علي الخطاب وقصيدة الأستاذ وطلبت منه إلا يقول للوكيل شيئاً مما عرف.

هذا ولم يمض اسبوعان حتي سمع صاحبنا كلمة من رئيسه الوكيل وهو يقول له : مبروك: اعتمدت المصلحة (تأهيلك) الفني وصدق لك بعلاوة وبإجازة وبالنقل بعد انقضائها لمحطتك التالية (أبو حمد)! ثم سلمه رسالة معنونة باسمه من رئاسة المصلحة تتضمن تلك المعلومات ثم قال له الوكيل ضاحكاً. العجيب أنك علي علم بما سيحدث منذ أسبوعين أو ثلاثة وصفق بيديه معجباً.. فضحك يوسف وضحك صاحبنا وتركا رئيسهما يواصل حيرته!

أركويت فاتنة الجبال!

إن جبل (الست) في قمة أركويت شرق سنكات يعكس في الواقع فتنة الطبيعة.. ابتعاد عن سطح الأرض بالآف الإقدام إلي أعلي.. وأركويت حتي في أشد أيام السودان حراً (يذيب دماغ الضب) كما قال حافظ إبراهيم في وصف الحرفي السودان.. أركويت تهب عليها في النهار نسمات باردة وفي الليل لابد من الغطاء ببطانية الصوف حتي في شهر يونيو!! وعندما يكون الطقس صحواً فإن مدينة سواكن وزرقة مياه البحر الأحمر يمكن أن يراهما الناظر من أركويت بوضوح علي بعدها لذا فقد كان الإنجليز يعقدون فيها المؤتمرات العلمية في شؤون الإدارة والسياسة والاقتصاد وكان بعضهم يذهب إليها حينما ينشد الراحة أو الخلوة لاعداد بحث مهم. وعلي قمة أركويت تنبت أشجار خضراء ناعمة تغطي وجوه الصخور العابسة ولا ندري إلي متي يمكن للسودان أن يستغل أو يستثمر هذه الجنات السياحية ليس في أركويت وحدها وإنما في جبل مرة وأمثالهما.. قال صاحبنا: كنا نختلس السويعات من جبيت وسنكات

لنزور أركويت زيارات عاجلة ليوم أو بعض يوم فننسي أننا في السودان. إن الوفاء لتلك المفاتن دفعنا لأن نذكر أركويت في هذه اللمحة العاجلة قبل مغادرة شرق السودان إلي ضفاف النيل!

في حلقة سابقة ذكرت اسم المرحوم هاشم محمد سعد من أعيان المنطقة وكان رحمه الله من المهتمين بالحركة الوطنية وهو أول نائب برلماني إتحادي انتخب في الديمقراطية الأولي في دائرة بورتسودان وقد ربطت بيننا علاقات وطنية اعتز بها في الأربعينيات أكرر الأربعينيات يا جماعة التصحيح وليس الأربعينات. أرجوكم فوداعاً هاشم ووداعاً سنكات وإلي لقاء في الحلقة القادمة علي عاصمة أرض بني رباط أبو حمد حياها الله ... إلي لقاء.

الحلقة العشرون

سلاماً أبناء العمومة بني رباط في عاصمتكم التاريخية (أبو حمد) علي شاطئ النيل

وسلاماً للوكيل الادفاوي الذي حول مكتبنا هناك لمنتدي ندرس فيه اشعار المعري وفلسفاته!

عاد الموظف الصغير سنا ودرجة وظيفية إلي النيل في أول إجازة سنوية تمنح له تحدوه أشواق عارمة لم يكن يحسب أنها ستبلغ عنده تلك الدرجة بعد غياب لم يتجاوز العامين ان لم يكن أقل وهذا هو القطار ينفلت من خط الشرق في محطة (هيا) متجها نحو الغرب ووجهته عطبرة عاصمة السكة الحديد الواقعة عل شط النيل ذلك المعشوق الذي كان يجهل أن له في وجدانه كل ذلك الأثر البالغ ان القطارات القادمة من بورتسودان لتحمل ركاب المنطقة من جبيت وسنكات وما بعدهما تصل عادة إلي جبيت حوالي الثامنة مساء وتصل عطبره عند مشرق الشمس تقريباً - كل ذلك كان في الماضي البعيد - كانت تلك القاطرات تقطع الليل كله في سري حثيث وها هو صاحبنا يطالع في الصباح وجه النيل (الصبوح) وقد تهدل عليه النخيل بأشجاره والجريد يلقي ضفائره نحو هذه الجهة أو تلك وفق هبوب الرياح فيسعد ايما سعادة ولكنه في الوقت نفسه ظل يذكر أولئك الأحباب الذين خلفهم وراءه الأصدقاء والزملاء ووديان الأراك وجبيت وسنكات حتي أركويت التي لم يكن يزورها إلا لما ما

إلا ما أعجبك أيها الإنسان لقد كنت بالأمس القريب تكاد تجن جنوناً لاحساسك بتلك العاطفه في شغاف القلب وانفعالات الوجدان وقد نسيت أو

كدت تنسي أنك جئت من هذه البقاع التي تتلهف اليوم لمجرد إلقاء النظرة الأولي عليها.. سبحان الله!

عود إلي القرية

واصل قطار الشرق مسيرته التي تحولت من الشمال إلي الجنوب بعد تجاوز عطبرة حتي ألقي صاحبنا عصا التسيار في محطة (القوز) ثم لم تمضي بضع دقائق حتي بدت له قبة جدنا (أبعيسي) ثم منازل القرية إنها القرية.. إنها (قندتو) تطل عليه أو يطل عليها بعد مضي عامين ثم أخذ بتنقل بينهما وبين (البندر) شندي ثم ذهب إلي العاصمة زائرا حتي انقضت أيام الإجازة علي أقصي ما تكون السرعة فيما بدت له.

اللقاء المدهش بأبي حمد

قال صاحبنا وإذا بقطار حلفا (الإكسبريس) يحمله إلي أبي حمد (مثواه) غير الأخير فإذا به يواجه مدينة صغيرة للغاية قد لا تزيد رقعتها الجغرافية علي جبيت وهذا شريط السكة الحدد يقسمها إلي نصفين الشرقي وبه منازل الموظفين علي قلتهم وهم موظفو السكة الحديد وعمالها ورجال المحكمة الشرعية والمدرسون وموظفا بريد البلدة، أما في القسم الغربي من المدينة وعلي الشاطئ العامر بالنخليل مباشرة فتنتشر منازل التجار وحوانيت السوق.

ومن الطريف أن صحراء العتمور المعروفة والمخيفة تزحف من الجهة الشرقية للمدينة فما تنتهي الا عند المنازل أو شاطئ النيل مباشرة في بعض المواضع وتوازي مدينة أبي حمد بالشط الغربي للنيل جزيرة (مقرات) الشهيرة وقد شمخت فيها أشجار النخليل أو علي الأصح غابات النخيل الخضراء تقابلها علي الشط الشرقي حدائق أخري أقل وأخف وثمار النخيل في المنطقة هي رطب

(المشرق) ذي اللون الأصفر الحلو المذاق والذي يتحول بعد نضجه إلي عجوة أو يصنّع وهو المحصول الزراعي الرئيسي لأبي حمد وضواحيها حينذاك.

وسكان أبو حمد الأصليون هم الرباطاب وقد ورد في وثائق الجعليين وأنسابهم أن الرباطاب من أولاد غانم بن حميدان وغانم هو جد فريق كبير من الجعليين كما أن أخاه (شائق) هو جد الشايقية ولنا عودة متانية إلي حد ما إلي هذا الموضوع الذي توسع فيه صديقنا الباحث العلامة البروفيسور عون الشريف قاسم في كتابه (الموسوعة في القبائل والأنساب).

هذه لمحة عامة عن أبي حمد التي نقل إليها صاحبنا فكيف وجد عمله فيها، وكيف عاش في جو دافئ بالعلاقات الاجتماعية بين من اتصل بهم سواء كانوا من الموظفين الوافدين إليها أو أهلها المقيمين هناك؟

كان مبني البريد والبرق والتليفونات يأخذ جزءاً من مبني محطة السكة الحديد ذي الطابع الضخم والذي بني بالحجارة والطوب الأحمر فوق رصيف مرتفع كثيراً عن سطح الأرض وإلي جواره مباشرة يمتد خط السكة الحديد أسفل الرصيف!

التقي صاحبنا منذ الوهلة الأولي بوكيل البريد والبرق الادفاوي – منطقة أسوان – بمصر شخص وديع دائم الابتسام هادئ الحركة والصوت فتفاءل به فما خيب فيما بعد ظنه علم صاحبنا أن المكتب ليس به موظف غير الوكيل وهذا يعني فيما قدره وفق حسابات سريعة، إنه سيكون المسئول عن تسلم وتسليم البريد للوكلاء السفريين في القطارات كما أنه سيكون المسئول أيضاً عن إنجاز عمل التلغراف بالنسبة للبرقيات الصادرة والواردة فرأي أن يبادر بإخطار الوكيل بأنه سيضطلع بهذه المهام منذ اليوم فأجابه لماذا تثقل علي نفسك وأنا

موجود معك يأبْني ويكفي أن تتكفل لي بالعمل التلغرافي وحده وتترك لي البريد إلا أن صاحبنا نفذ مبادرته التي كانت فاتحة لحسن التفاهم والتعاون اللذين سادا جو العمل بينهما حتي غادر أبا حمد في أواخر النصف الثاني من عام ١٩٤٥م وكان قد وصل إلهيا مع بداية عام ١٩٤٤م علي وجه التقريب وبعد فترة قصيرة اكتشف الوكيل ومساعده أن هناك علاقة إنسانية عظيمة تربط بينهما هي حب الأدب وحفظ بعض النصوص الأدبية والنقاش حولها ومما ساعدهما علي ممارسة هوايتهما أن العمل في أبي حمد كان خفيفاً جداً البريد علي قطارات حلفا وقطارات كريمة سواء كان صادراً أو وارداً لا يتجاوز خمس مرات في الأسبوع علي الأكثر والتلغراف لايعدو عشرين برقية في اليوم صادراً ووارداً وتمتد الساعات في الصباح ثم تختتم بساعة واحدة في المساء ثم لايقطع السكون إلا مواطن يأتي ببرقية لإرسالها أو خطاب لتسجيله أو لشراء طابع بريد وكل عملية من هذه العمليات تنتهي بالطبع في لحظات.

والمعري صاحبنا الثالث

كان الوكيل سيد عبد الحليم معجباً بأبي العلاء المعري إعجاباً منقطع النظير وكان يحفظ معظم ما أودعه كتابه (اللزوميات) فكان عندما يصمت وتسبح عيناه في الفضاء من خلال نافذة المكتب وكل منا جالس إلي مكتبه في غرفة واحدة لايزاحمنا فيها الاجهاز التلغراف حيث كانت صناديق البريد داخل حجرة أخري يفتح بابها تجاهنا كان سيد عبد الحليم خلال ذلك الصمت والتحديق في الفضاء – كما عهدته منذ المرحلة الأولي لالتقائنا – يتأمل في فلسفات أبي العلاء شيخ المعرة في اللزوميات. وكان كما في المرحلة الثانية حسب توقعي يبدأ فيقرأ لي

من محفوظه الكثير أبياتاً من شعر شيخ المعرة تتضمن حكمة أعجبته ثم نشترك في تفسير معانيها العجيبة وصياغتها الرائعة فنثني علي الشيخ وعلي نظراته العقلية البعيدة المدي والتي تجاوزت الزمان والمكان كان يقطع علينا تلك السياحة الفكرية الممتعة إلا مواطن يريد منا عملاً سريعاً عابراً فنقضيه له ثم نعود فنستأنف الحديث من حيث توقفنا.

أهو مكتب أم منتدي

كان سيد يطلب من ساعي المكتب أن يذهب إلي منزله - علي الأرض في مستوي دون الرصيف لمدي خطوات من المكتب - ليحضر لنا مشروباً دافئاً شاياً أو حلبة أو قهوة مرتين علي الأقل يومياً ونحن نواصل حوارنا الأدبي وقد يأتي أبناؤه من تلقاء أنفسهم وهم يحملون لنا المشروبات بالمكتب حتي ينتهي موعد العمل فيه بلهفة وحب بل كانت تلك الغرفة أقرب لأن تكون منتدي منها إلي مكتب أوقاعة محاضرات يجد فيها الطلاب والزوار أستاذاً متمكناً يعرف كيف يجذب إليه المستمعين وهويلقي محاضرة عظيمة شيقة لا ينشغل الفكر عن متابعتها لحظة واحدة..

قال صاحبنا: كان رئيسي الوكيل هو المحاضر وكنت أنا الطالب المتلقي بكل جدية واهتمام وتنوق حلوعميق في ذلك المنتدي الأدبي الثقافي الذي لانظير له علي الإطلاق في دواوين الحكومة ذلك الفيض الغزير من الفلسفات في صيغ شعرية ولغوية لم تتكرر عبر تاريخ اللغة العربية ومسارها منذ عهد أبي العلاء المعري وحتي اليوم.

المقارنة العاجلة العجيبة

وأضاف صاحبنا: قارنت وقتها بين وكيل كنت أنا أستاذه في سنكات وآخر

في أبي حمد لا أعتقد أنني أرقي لأن أكون تلميذاً له ولن أنسي أن أذكر طيلة حـيـاتـي أنه وجـهـني إلي كنوز أبـي العـلاء سـواء في (سـقـط الزند) أو في (اللزومـيـات - لزوم مـا لا يلزم) عـدا الكتب الأخـري التي سـعـيت فـيـمـا بـعـد للحصـول عليـها ومنـها (رسالة الغفران) السـاخـرة الخطيرة والتي قـال النقاد العرب وغيرهم أن (دانتي) أخذ منها كتابه الفلسفي وواصل صاحبنا أن صلته بأبي العلاء لم تنقطع وأنه كثيراً ما كتب عنه وقدم المحاضرات عبر عشرات السنين علي الأخص في الموضوعات السياسية في زمن كان الإرهاب فيه باسطاً ذراعيه وهو يقول في حكام زمانه:

يسوسون الأمور بغير عقل

فيصدق أمرهم ويقال ساسه

فأفٍّ من الحياة وأفٍّ مني

ومن زمن رئاسته خسـاسه

قال صاحبنا وبما أن الشئ بالشئ يذكر فإني كتبت مرة دراسة أدبية لمجلة البـيـان التي كـانت تصـدر عن وزارة الشـؤون الدينيـة والأوقـاف ووزيرهـا في السبعينيات الدكتور عون الشريف قاسم ويحررها تحت أشرافه الصديق الشاب الأديب (الآن دكتور) عبد الله حمدنا الله أقول كتبت للمجلة مقالاً عن تعدد مواهب أبي العلاء وآرائه الجريئة في مختلف جوانب الحياة ومنها السياسة وورد في ا لموضوع البيتان اللذان أشرنا إليهما أعلاه وبعد يومين أو ثلاثة بعد استلام المقال جاءني خاطر غريب هو ربما فسر البعض كلمة الرئاسة والخساسة تفسيراً مغرضاً بعد نشر المقال مما يمكن أن يسبب للصديقين أو للمجلة حرجاً ولو إلي حد ما ولكن الله سلم فلم يلتفت إلي تلك المخاوف شخص آخر.

الحلقة الحادية والعشرون

ملاحظة الشيخ تكرون الرباطابي التي اهتم لها الملك سعود والشيخ المراغي وآخرون بمكة!
والمناقشات الفقهية العميقة بأبي حمد بين الشيوخ عبد الله الترابي والحسين الحسن وتكرون

كان في أبي حمد ناد صغير نظيف ضمن مباني السكة الحديد يحيط به سياج من الورود الحمراء التي كان العرب يسمونها شقائق النعمان. كان يلتقي موظفو الحكومة عنده في الأمسيات فيستمع بعضهم إلي الراديو ويتسامرون ويتسلي البعض بلعب الورق والضمنة. والموظفون في أبي حمد قلة لا تذكر كما سلف القول. ويذكر صاحبنا أن قلة أخري منهم كانت تتسلل تدريجياً ودون اتفاق من النادي لتلتقي في المسجد في صلاتي المغرب والعشاء ثم تعود. وكان من أولئك الزملاء الصديق أمين أحمد بابكر مهندس «الكارير» وهو جهاز لتقوية خطوط الاتصال التليفونية بين السودان ومصر ومنهم سليمان عبود وكيل تلغراف السكة الحديد. وكانوا يلتقون في المسجد بالشيخ عبد الله دفع الله الترابي قاضي المحمة الشرعية والد البروفيسور دفع الله عبد الله الترابي وشقيقه دكتور حسن الترابي ومن بين أولئك الزملاء الشيخ عبد الله علي عبد الرحمن كاتب المحكمة الشرعية وهو أديب راوية متمكن من حفظ نوادر وطرائف التراث العربي كما انضم إليهم من التجار الشاب الرشيد بابكر الأحمر الذي توثقت فيما بعد صلاته بهم فأصبح واحداً منهم.

مناقشات في الفقه

كانوا بعد أداء صلاة المغرب في المسجد يستمعون إلي حديث في الفقه وربما في الحديث الشريف بصفة خاصة يقدمه القاضي الشرعي المتقاعد آنذاك الشيخ الحسين حسن وهو من أهل المدينة وكان ينتمي إلي أنصار السنة فكان يثير من خلال روايته وتفسيره للحديث النبوي من وقت لآخر قضايا وموضوعات البدع والضلالات وبما أن معظم من كانوا يستمعون إليه من أتباع الطرق الصوفية أو مؤيديها فقد بدأوا يختلفو معه ويناقشونه.

ونقل بعضهم آراءه إلي القاضي الشرعي وهو عالم من أبكار خريجي المعهد العلمي بأم درمان ومتطرق وذو انتماء عريق للطريقة الختمية فأخذ يتأخر بعد صلاة المغرب عمداً ولايذهب الي منزله الذي كان بجوار الجامع لكي يحضر درس الشيخ الحسين الحسن فيتصدي له ويعطي للأحاديث تفسيراً مغايراً ويرشد إلي معناها الحقيقي كما يراه ويغضب لما يريد الشيخ الحسين أن يذهب إليه ويتهمه بأنه يتنكب الجادة ثم يأتي بالعديد من النصوص التي تعارض ما يدعو إليه شيخ الحسين حول أحاديث «البدع والضلالات»

ظهور الشيخ تكرون

كنا نحن صحبة المسجد لا نضيق بتلك المناقشات الدينية كما كان يضيق بها ويغضب عدد كبير من المصلين وكنا مسرورين لوجود القاضي الشيخ عبد الله الترابي لنفيد من ذلك الصراع الفكري الديني الدائر بين أهل الرأي والرأي الآخر إلا أننا كنا نثق كثيراً برأي فضيلة الشيخ الترابي كعالم تأهل في المعهد العلمي وحصل علي إجازته كما علمنا بتفوق يعترف به زملاؤه وذلك قبل مرحلة الاتصال التي تمت فيما بعد بيننا وبينه فصرنا نزوره في المنزل من وقت إلي آخر.

وقد لاحظ أحد المصلين من أبناء المنطقة اهتمام هؤلاء (الأفندية) الشبان بالمواظبة علي صلاة الجماعة في المسجد وإلي جانب ذلك اهتمامهم أيضا بالدروس الفقهية فأقترح عليهم أن يأتي لهم بعالم كبير من جزيرة «كرقس» اسمه الشيخ تكرون من الرباطاب متفرغاً لأداء هذا الواجب فتحمسوا للفكرة وأوجدوا للشيخ تكرون إقامة مناسبة في حجرتين تابعتين للمسجد كما اعتمدوا له مرتباً شهرياً مناسباً من دخولهم الخاصة وكانوا يحملون إليه الطعام من منازلهم ليتناولوا معه طعام الغداء فسعدوا بالشيخ تكرون كما سعد هو بهم قال لهم الشيخ تكرون أنه يمكن أن يساعدهم بعد أن يقدم لهم دروس الفقه بتحفيظهم القرآن فهو حافظ بحمد الله كان الشيخ تكرون رجلاً لطيفاً متواضعاً يحب الدعابة إلي جانب علمه الغزير بدأ صاحبنا مع رفاقه الاستماع لدروس الفقه كما عرض علي الشيخ رغبته الخاصة في حفظ القرآن فأستجاب الشيخ مشجعاً وأتاحت له هذه الدراسة المزدوجة أن يقضي مع الشيخ وقتاً أطول من صحبه الآخرين وكان لصديقه سليمان عبود المام جيد بالفقه جعله كثيراً ما يخردد علي الشيخ في غير أوقات الدروس ليناقش معه مسألة فقهية معينة أو يستفسر عن نقطٍ معينة أخري وقد لفت سليمان عبود وهو من طهل قريتنا «قندتو» نظر الشيخ إلي أن تلمي\ه هذا يعني صاحبنا له حظ في مسائل الأدب {الشعر فسر الشيخ تكرون لهذا الخبر وقال مچاحبنا لماذا لم تكشف لي عن هذه الحقيقة فأنا أحفظ الكثير من شعر الجاهلية وصدر الإسلام وحكايات الأدب والأدباء فكان فعلاً كما قال وقد أتاحت له هذه المناسبة أن يسمع تلميذه الكثير من الأمثلة الشعرية والنكات الأدبية وبعض أحداث التاريخ الآسلامي والسير والأخبار وأصبح حينما يلقي علينا درس الفقه يتمثل أحياناً بأبيات من الشعر

أو مثال من الأدب أو اللغة لتوضيح النص الفقهي وكان يقول لرفاق صاحبنا هذه الملاحظة يفهمها فلان أو تخصه وحده ويضحك.

الحسين والمراغي وتكرون

لقد استمتع الأخوة الدارسون بتعلم الفقه وأفادوا كثيراً إلا أن صاحبنا زاد عليهم بحفظ القرآن الذي قطع فيه شوطاً طيباً يومياً ويتلقي حكايات الأدب والشعر والتاريخ من خلال الزمن الكثير الذي كان يقضيه مع أستاذه الشيخ تكرون وكان يليه في الإفادة باكبر قدر من علم الشيخ تلميذه الآخر سليمان عبود ولكن في مجال الفقه وحده الذي كان له فيه تحصيل أوفر مما كان لنا جميعاً.

كان الشيخ الحسين الحسن قد انقطع لفترة عن التدريس في المسجد عقب المشادات التي حدثت بينه وبين القاضي العالم الشيخ الترابي ثم عاد مرة أخري لتدريس الحديث ولكنه وجد هذه المرة رجلاً رباطابياً من أهله ومن سكان الجزيرة «كرقس» التي تقع غربي النيل جنوب (مقرات) هو الشيخ تكرون كان هذا الشيخ يجلس للدرس كالآخرين في صمت ويستمع إلي الشيخ الحسين حتي ينتهي ثم يبدأ بالتعقيب فيتابع حديث الشيخ الحسين نقطة نقطة بكل دقة وترتيب فيورد رواية الشيخ الحسين ثم يعارضها برأي آخر ويستشهد أحياناً بالآيات القرآنية وأحياناً بالحديث الشريف ويظهر تمكناً عجيباً يدل علي سعة في المعرفة وتنوع في الإطلاع. وكان الشيخ الترابي يحضر بدوره ويظهر وهو يهز رأسه أو يبتسم استحساناً لآراء الشيخ تكرون كما كان يتدخل أحياناً معلنا تأييده لتلك الآراء واختلافه مع الشيخ الحسين أما نحن الطلاب الدارسون فقد كنا نستمع ونفيد بدرجة تتجاوز أقصي حدود الوصف، أنها مناظرات بين رجال علماء

تكشف عن عقول نيرة وعلوم غزيرة أخال أن طلبة الجامعات والمراكز العلمية لا يحظون بمثلها في تخصصها ولكنها تذهب جهداً مجهولاً لرجال مجهولين !! ترى كم مثل هذه التجربة المتميزة تحدث في أقاليم السودان وقراه وأريافه قديما وحديثا حيث لايحس بها أحد ولايتحدث عنها أحد بعيداً عن الإعلام وأضوائه والصحافة وضوضائها؟!

من طرائف المناظرات

ومن طرائف تلك المناظرات العلميـة الممتازة بين الشيخ الحسين الحسن والشيخ تكرون أن الشيخ الحسين قال للشيخ تكرون: لا تجادلني ياشيخ في هذه المسائل فأنا قد أوسعتها درساً بل وحفظاً وقد نضجت في ذهني ووجداني فأجابه الشيخ تكرون: نعم لقد نضجت ولكنها مخورنه فضج الجميع بالضحك بمن فيهم الشيخ الحسين نفسه. ربما لم يخطر بباله أن تنطلق تجاهه مثل هذه الكلمة السريعة علي طريقة الرباطاب وعلي كل حال فهما من بلد واحد وقبيلة واحدة!!

والخورنة إن لم يعرفها البعض المعاصر عبارة عن تخمر يحصل في الثمار وفي الفاكهة عموماً بحيث تتحول الحلاوة فيها إلي حموضة وربما تتغير رائحتها وأخواننا المصريون يصفونها في هذه الحالة أي الفاكهة - بأنها معطوبة من العطب وهو مرض يحدث لها أو فساد أو تلف .. والخورنة معروفة بهذا المعني في العامية السودانية.

وبين الحسين والترابي

وأخري بين الشيخين الحسين والترابي وهما يتجادلان في نقطة فقهية وكان الحسين ينفعل في حين أن الترابي كان هادئاً وأراد الحسين أن يقرأ النص الذي

يريده من أحد الكتب التي كانت موضوعة أمامه ولكنه لشدة تأثره تناول منظاره وأخرجه من الغطاء وأخذ يحاول وضع الغطاء «بيت النظارة» علي عينيه باعتبار أنه النظارة وكانت موضوعة أمامه علي الأرض وظل للحظات يتحدث وهو يحاول منفعلاً تثبيت الغطاء علي عينيه فأخذ الترابي يضحك ويقول له: يا شيخ الحسين دامو النضارة دا بيتها!!

ونتوقف هنا عند المسجد والدرس لنلتقي بالشيخ تكرون في مشاهد أخري.

الملك عبد العزبز آل سعود والشيخ تكرون

حكي لنا الشيخ تكرون أنه ذهب مرة للحج وكان ذلك بحياة الملك عبد العزيز آل سعود رأس الأسرة السعودية المالكة فامتدحه لا هتمامه بالعلماء وقال أنه كان يقيم لهم في كل موسم حج اجتماعاً خاصاً ويقول لهم: أنتم علماء الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها وأنتم المسئولون وأنتم تؤدون المناسك عما يتعارض ونصوص الشريعة فعليكم بالأمر وعلينا بالطاعة!

قال الشيخ تكرون: استمعنا إلي هذه الكلمة الطيبة وكانت في ذهني ملاحظة أردت المبادرة بالاشارة إليها ولكني أثرت التريث وإفساح المجال لمن هم أكبر مني مكاناً وربما علما خاصة وأني رأيت الشيخ المراغي، شيخ الجامع الأزهر وآخرين من كبار العلماء فربما خطر لأحدهم أن يبدأ بالحديث فلم أري أحداً طلب التحدث فطلبت الأذن وطرحت ملاحظتي وهي:

في خط السعي بين الصفا والمروة يري الحجاج علي يمينهم ويسارهم أناساً افترشوا علي الثري أنواعاً من البضائع يعرضونها للبيع والحاج في حالة السعي هذه كالمصلي تماماً في حالة الصلاة وانشغاله بالنظر إلي البضائع

والمعروضات أمر منهي عنه بالنسية للساعي كما هي الحال بالنسبة للمصلي لذا فأري أن العرض ينبغي أن يختار له مكان آخر قال فسر الملك عبد العزيز لحديثي وقال لي جزاك الله كل خير ورأيك صحيح ولكنا وجدنا فيه نصين اثنين أحدهما لعبد الله ابن عمر فيه التشديد والمنع كما طلبت أنت والثاني لعبد الله بن عباس فيه الدعوة للتيسير والترخيص وحجته أن هؤلاء الناس يعيشون علي ما يعرضونه علي الحجاج مرة في كل عام وفي منعهم أضرار بهم وتصعيب عليهم والدين كما تعلمون يسر وبما أن كلا الرجلين من كبار الصحابة وقد أخذنا برأي أحدهما تيسيراً علي أولئك المساكين قال الشيخ فلما انفض الاجتماع أقبل الشيخ المراغي نحوي وعرفني سودانياً فصافحني وشد علي يدي ثم ربت علي كتفي مرتين أو ثلاثاً وهو يقول لي: جزاك الله عن الإسلام كل خير وبارك فيك فقد نطقت بما عجزنا عنه وتتابع بعده الأخرون وهم يهنئون ويدعون لي قال الشيخ:

فما شعرت بسعادة قط مثل تلك التي شعرت بها ذلك اليوم.

قال صاحبنا فقلت للشيخ تكرون: ولكن ما الذي كان يمنعهم أن يقولوا مثلما قلت؟

أهي الرهبة أم الرغبة؟ أم الجهل بهذه الملاحظة الفقهية المهمة التي ألهمك الله إياها؟

قال: الله أعلم

ملحوظة: في ذلك التاريخ كما اعتقد أن البترول لم يستخرج بعد في المملكة العربية السعودية.

هذا وإلي لقاء متواصل في أبي حمد ومع بني رباط.

الحلقة الثانية والعشرون

من يصدق ما كان يحدث في تلك المدينة الصغيرة النائية بين صحراء العتمور وشاطئ النيل؟

وبعيداً عن الجامعات والمعاهد العليا يتحدث البعض عن المعري وابن المعتز ومصادر التاريخ الإسلامي والأدب العربي!

قال صاحبنا: لابد من وقفة تاريخية ثقافية قصيرة عند حكاية تشديد ابن عمر وترخيص ابن عباس التي وردت في حديث الملك عبد العزيز آل سعود تعقيباً علي كلمة الشيخ تكرون الرباطابي السوداني بمكة المكرمه في موسم الحج وفي اجتماع علماء المسلمين الذين هيأه لهم جلالة الملك السعودي كما أشرنا إلي ذلك في الحلقة السابقة. والوقفة تعود بنا إلي الوراء لمدي ألف عام تقريباً حينما استولي العباسيون علي الخلافة من لأمويين وبويع أبو جعفر المنصور بعد السَّفاح فقد همه أمر الوعي الديني بالنسبة لعامة المسلمين ورأي أن كتاباً في الفقه يستند إلي الكتاب والسنة لابد أن يوضع والناس قد بلغوا القرن الثاني الهجري فكان أول من خطر ببال المنصور من علماء المسلمين آنذاك الإمام مالك بن أنس بالمدينة المنورة وهو في العراق فأستدعاه وأفضي إليه بما أهمه قائلاً له فيما رواه المؤرخون: لم يبق في الناس أعلم مني ومنك، أما أنا فقد شغلتني أمور الخلافة فأريد منك أن تضع لهم كتاباً في الفقه تتجنب فيه تشديد ابن عمر وترخيص ابن عباس ووطئة للناس توطئة!... بمعني أن يتدني فهمه وينخفض ويسهل لدي العامة.

ظهور كتاب الموطأ

قالوا: أدرك الإمام مالك ما رمي إليه الخليفه وسلك في تأليف الكتاب سبيلاً تحاشي فيه تشديد ابن عمر وترخيص ابن عباس أو أقصي الطرفين أياً كان نوعه تشديداً أو ترخيصاً كما التزم في الوقت نفسه بأن يكون فكره وأسلوبه موّطآين أي سهلين قريبي التناول ليفيد منهما عامة من يقرأ وهو مذهب كثيراً ما دعا إليه علماء اللغة والأدب حتي في العصور السالفة. وأثبت التاريخ أن الإمام مالك قد أضطلع بالمسئولية بكل كفاءة وسمي كتابه (الموطأ) إشارة إلي كلمة الخليفة المنصور ولم يكتف بذلك فقد قال بعد وفاة المنصور وقبيل صدور الكتاب: رحم الله المنصور فقد علمني التأليف!

وفاء ومثل واخلاقيات

والقصة كما قرأنا تعكس مشهدين لهما عظمتهما وروعتهما وفاء ومثلاً وأخلاقيات، فالخليفة العباسي العالم يشعر بهموم الثقافة الدينية فيختار لها من الرجال من هو أهل لها ويوجهه بالمنهاج الذي يريده في اعترافه له بالعلم. والعالم يعي جيداً ما أراد الخليفة بل ويتفق معه وإلا لما سار علي النهج الذي حدده المنصور ثم اقتبس للكتاب اسماً من كلماته: (ووطئه للناس توطئة) ثم قال بعد ذلك رحم الله المنصور فقد علمني التأليف: أنها كلمة تعني الوفاء وتعني الأنصاف كما تعني التواضع من عالم (شدت إليه الرحال) كما وصفه أهل زمانه وكان فيما بعد يعد أستاذاً للشافعي ولتلميذ الشافعي أحمد بن حنبل ضمناً وكان أبو حنيفة عندما يأتي للحج من العراق يزوره بالمدينة المنورة ويتبادل معه الحوار في شؤون الفقه وهو أسن منه وتوفي قبله بتسع سنوات.

وقد رأينا في الحلقة السابقة أن الشيخ تكرون قد أخذ فيما يظهر من كلام

العاهل السعودي الأول بما دعا إليه عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وكلا العالمية الجليلين بحر من بحور الفقه بأيهما اهتدينا كما أوصي النبي صلي الله عليه وسلم بالاقتداء بأصحابه رضوان الله عليهم وبكلامهم فكلهم أهل للاقتداء والاهتداء به.

الشيخ تكرون والفنون الأدبية

قال صاحبنا: ومثلما اتحفتني أبو حمد بوكيل البريد الأديب الفيلسوف سيد عبد الحليم فإنها اتحفتني مرة أخري وبدور أعظم وأنا أتتلمذ علي أستاذي الجليل العلامة الشيخ تكرون. فقد كان كلما فرغنا من دروس الفقه أو التقينا في منازلنا يسوق لي طرفه أدبية أو حكاية تاريخية أو يروي أبياتاً من الشعر رائعة ونادرة. لم يكن الشيخ تكرون يحدثني عن أدب معاصر فما أظن أنه كان يتتبعه أو حتي يقرأه وإنما كان في محفوظه لمع تاريخية مع الطبري أو ابن الأثير أو أدب الجاحظ أو مختارات من أشعار الجاهلية أو صدر الاسلام في الدولتين الأموية والعباسية وحينما أوغلت في قراءة هذه المصادر والمراجع في الستينيات وما بعدها كنت أرجع بالذاكرة إلي أيامي في ابي حمد وكأنما الشيخ تكرون - رحمه الله - يحدثني من جديد وقد مضي علي جلساتنا تلك قرابة ربع قرن من الزمان. إنها المصادر نفسها والحكايات نفسها ولكن الشيخ تكرون كان يمدني بالمنتقي والمختار من نفائسها. وأخذت أنا فيما بعد أقف علي كل شئ الغث والثمين والأخضر واليابس كحاطب الليل تماماً:

قال صاحبنا: تغيب عنا الشيخ مرة في سفرة ذهب خلالها لزيارة مسقط رأسه الجزيرة (كرقس) ثم عاد بعد أيام وهو ينشدني ضاحكاً:

سقي (الجزيرة) ذات الظل والشجر

و (دير عبدون) هطال من المطر

ثم سألني ألا يمكن أن نستبدل (المطيرة) بالجزيرة فلا يتغير المعني ولا جرس الكلمة كما لايتأثر الوزن؟

قلت بلي يا شيخنا ولكن المطيرة ستبقي هي المطيرة وكذلك الجزيرة إنما (ابن المعتز) كانت له في المطيرة مآرب أخري: فضحك مرة ثانية وهو يقول: أظنك تعني ما ورد في البيت الثاني وما تلاه:

إذ طالما نبهتني للصبوح به

في ظلمة الليل والعصفور لم يطر

قلت نعم فأجاب: حمانا الله من الصبوح والغبوق!

والقصيدة التي وردت فيها هذه الأبيات من شعر ابن المعتز الشاعر الملك والأديب الفنان الذي كان يحمل معه مكتبته أو بعضها في أسفاره علي ظهور ثلاثين أو أربعين جملاً ولكنه اكتفي مؤخراً في الأسفار بجمل واحد يحمل ثلاثين مجلداً هي كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني الذي أهداه مؤلفه إليه لأن الكتاب لايعني بالأغنيه فحسب وإنما بالشاعر والفنان والمنطقة والجغرافيا والاجتماع وقد اتفقنا: أستاذنا البروفيسور عون الشريف قاسم وشخصي علي أن تسمية الكتاب بالأغاني يقلل من شأنه ومدلوله الواسع!

وبعد.. تلك ومضات من ذكريات حافلة بالكثير الممتع وقد لاأجد لها وصفاً أبلغ من قول أبي العلاء أحمد بن سليمان التنوخي:

فلو سنح الزمان بها لضنت

ولو سنحت لضن بها الزمانُ

فإلي وقفات أُخريات والشئ بالشئ يذكر!

والبداية الشعرية في أبي حمد!

قلنا أن مكتب البريد والبرق في أبي حمد ممثلاً في شخصيْ الوكيل ومساعده كان رافداً أدبيا جديداً لصاحبنا ثم تلاه مجئ الشيخ تكرون الذي فتح له نافذة ثانية علي آفاق الأدب والشعر بدوره الأمر الذي شجعه ليس علي القراءة والحفظ فحسب وإنما علي (قرض الشعر) كما كان الأقدمون يقولون فأخذ يكتب الأبيات تلو الأبيات ثم القصائد ولكنه لم يكن راضياً عما كتب. ثم وجد أديباً وكاتباً كبيراً وشاعراً مصرياً آنذاك يحكي عن تجربته مع الشعر فإذا هو يعاني في صباه مما عاني منه صاحبنا لاحقاً حيث كتب في ذكرياته يقول:(.. ولا أكاد أرضي عما أكتبه من شعر إلا بعد أيام من كتابته ثم ما ألبث أن أكتشف ما فيه من نقص أو خطأ أو تقليد مكشوف فأحرق عندئذ أوراقه من الكراسة حتي لم يبق من بعض هذه الكراريس إلا جلدتها!!.. ذلكم الأديب والكاتب والشاعر المصري هو: صلاح عبد الصبور في كتابه: «علي مشارف الخمسين» يعني سنه حينذاك..

ولكن صاحبنا لم يكن يأخذ بطريقة الكراسات هذه وإنما كان يكتب علي أوراق منفصلة عن بعضها البعض فيمزق منها البعض ويبقي علي البعض الآخر. ولكنه شعر بعد صبر علي الجهد والمعاناة أنه قد اقترب من امتلاك ناصية الشعر أو كاد. وأن ما يقرأه من بعض القصائد التي تنشر في الصحف آنذاك ليس أحسن حالاً من الذي عنده بل إن بعض شعره وقد أخضعه لنقد ذاتي لا تعصب فيه قد بدا له أفضل من بعض الذي قرأه في صحف ذلك الزمان وما أبعدها عن التي تنشر في صحف اليوم!!

فكتب قصيدة عنوانها.

(إلي وادي الأراك في جبيت وسنكات وإلي أركويت فاتنة الجبال وإلي الأصدقاء هناك) بعث بها إلي الأستاذ المبارك إبراهيم وكان يحرر مجلة (هنا أم درمان) ويحاول أن يقلد في إخراجها مجلة (هنا لندن) من حيث اختيار الورق الأبيض المصقول والعناية بالقصائد الشعرية المنتقاة ونشرها داخل إطار (بروان) من النقوش الفنية وإذا بالقصيدة تنشر في وقت وجيز وبصورة تختلف كثيراً عن النشر في الصحف اليومية علي ورق (الجرنال) الذي يتطمس عليه الحبر وتترع الحروف وتنعدم العناية أحياناً حتي بالتصحيح!

لقد أعطي ذلك النشر المعتني به في مجلة (هنا أم درمان) لقصيدته جاذبية فائقة أضافت إلي سحر الكلمة المطبوعة أساساً سحراً جديداً. فقرأها صاحبنا وهو لايكاد يصدق عينيه ثم عرضها علي أصحابه في أبي حمد فأعجبوا بها ولكن الشئ المهم هو أنها قد طمأنته علي أن شعره يمكن أن يكون معترفاً به وأن المبارك إبراهيم رئيس تحرير المجلة وإن كان لا يعرفه معرفة شخصية آنذاك فإن اسمه الإذاعي اللامع وما اقترن به من الكتابة في الصحف في الداخل والخارج كان يشير إلي أنه كاتب وأديب وشاعر وقد قرأ له شعراً جاراه فيه العقاد نفسه إبأن زيارته للسودان واحتفال العاصمة السودانية به سنة ١٩٤٢م علي النحو الذي سبق لنا أن أوردناه وعلي ذلك فهو قد أعطي لنشر المبارك إبراهيم لتلك القصيدة وزناً خاصاً لأنه لم يكن مجرد صحفي وإنما هو كما سبق القول أديب وشاعر له الخبرة الدقيقة بما يمكن أن يقرر نشره من عدمه. هذا وقد كان لنشر تلك القصيدة من ناحية أخري بداية لتأسيس علاقات وطيدة وزمالة كريمة وصداقة حميمة فيما بعد بينه وبين المبارك إبراهيم رحمه

الله وأمل أن تجد القصيدة مكاناً لها في إحدي الحلقات التالية لأنها القصيدة البكر ان صح التعبير.

بداية الشعر الوطني والسياسي

وفي فترة تالية قبيل نهاية الأربعينيات بدأ صاحبنا كتابة القصائد الوطنية والسياسية والاجتماعية التي عرفه بها قراؤه إلي جانب الوجدانيات وكان رجال الصحافة يرحبون باتصاله بهم ويشجعونه علي الكتابة إليهم وكان يذيل القصيدة باسمه الكامل في الجانب الأيسر ويكتب (أبو حمد - البوستة) في الجانب الأيمن وما إن نشر له بضع قصائد حتي عرفه سكان أبي حمد وأصبح الشاعر المرموق في مدينتهم الصغيرة! ليس ذلك فحسب وإنما تتبعه عارفوه وزملاؤه البريديون وأهله في منطقة شندي وكذلك مجموعات الأدب والشعر في مختلف مدن السودان فكان ذلك بالنسبة له انتصاراً عظيماً نشأ به وهو في التاسعة عشرة من عمره. وقد شجعه هذا النجاح علي أن يواصل القراءة في دواوين الشعر القديم والحديث من جهة كما يواصل الكتابة إلي الصحف من جهة أخري وكان الشعر يواتية دون عناء أو مشقة بعد أن فتحت له الصحف أبوابها فكان ذلك بدوره تشجيعاً وحافزاً له علي مواصلة الإنتاج والنشر في آن واحد. وكان صاحبنا إذا تمشي في أطراف صحراء العتمور المتصلة بالمنازل من الجهة الشرقية لأبي حمد يجد في الصحراء واستوائها ولمعان سرابها وكأنه الماء صورة شعرية تلهمه قصيدة كاملة. وكان عندما يذهب إلي شاطئ النيل ويري الجزر التي انعزلت عن الماء وأصبحت أرضاً معشوشبه وكأنها جزء من الشاطئ لاينبت عليها إلا بعض الأشجار الشوكية والحلفاء ولاينشط أهل المنطقة علي استصلاحها زراعياً ويطلقون عليها أسماء يبدو أنها من لغة النوبة

سكان الشمال القدماء مثل (كِجّي) و (بربات) يجد الآثار التي لايلبث الشعر عنده ألا أن يستجيب لها.

وقد وقف مرة عند (بربات) فكتب قصيدة مطلعها:

قف بالجزيرة ذات العُشْب (بربات)

وسرّح الطرف في جنات (مُقرأت)

وبربات بالشرق عند أبي حمد ومقرات علي الشاطئ الغربي ويذكر أنه وقف مرة عند بربات علي الشاطئ فوجد أعشابها قد يبست لأن النهر قد ابتعد عنها في فترة انحساره فخاطبها شعراً ثم قال:

عجبت لجار النيل يقتله الظما!

وكانت القافية ميمية مفتوحة ويذكر أنه أنشدها رفاقه بالنادي فوصل خبرها إلي مولانا الشيخ المبارك وكان معلماً وإمام مسجد بأبي حمد فأعجب جداً وقال له أن شطرة: (عجبت لجار النيل يقتله الظما) إلي جانب القصيدة كلها قد أعجبتني أيما إعجاب. هذا ولم ينشر صاحبنا من تلك القصائد إلا قصيدة العتمور وصادف أن أطلع عليها في الدامر صديقه الشاعر الكبير محمد المهدي مجذوب - رحمه الله - فأعجبته كثيراً وقال له: أنت شاعر حتي ولو أنكرت شاعريتك لأن الصحراء التي لاشجر فيها ولاحجر لا تلهم الشاعر العادي بيتين أو ثلاثة ناهيك عن قصيدة كاملة.

وإلي لقاء متصل مع أبي حمد

الحلقة الثالثة و العشرون

الرياطاب هم اكثر القبائل السودانية سرعة في البديهة وفصاحة في اللسان وحكايات (أبشر أخوي أضرب!) والشابين اللذين طاردهما الأسد في غابات (الشريك) القديم

تسامع أصدقاء صاحبنا ومعارفه في مدينة أبي حمد الصغيرة عن قصائده في (كِجّي) و (بَربات) و (مُقرات) وفي صحراء العتمور التي تغزو المدينة من الجهة الشرقية وقد سبق ذكرها فأخذوا كلما جلسوا معه أو جلس معهم يسألون عن تلك القصائد ويطلبون منه أن ينشدهم شيئاً منها. وكان في مقدمتهم الشيخ المبارك من شيوخ المدينة والمعلم بالمدرسة الأولية وإمام المسجد فكان يعجب للشاعر من حيث هو كيف تلفت نظره مثل هذه الشواطئ المهجورة والتي لا قيمة لها فيما يعتقد وكيف يواتيه الشعر في موضوعاتها البسيطة والعادية.

وأخذ الشيخ المبارك بعد قراءته لتلك القصائد يهتم بصاحبنا ويحتفي به وكان يدعوه لا حتفالات المدرسة ويقول له إن لم تجد في احتفالاتنا ما يستجيب له الشعر فألق علينا كلمة أدبية فاستجاب صاحبنا لرجاء ذلك الشيخ الودود الكريم وكان الكثير من المحتفلين تعجبهم الكلمة الأدبية المرتجلة وبنت ساعتها في حفل المدرسة وهي تتناول بالتعقيب والتعليق ما شهد وسمع منذ قليل. وكذلك كانت حياة الناس في الأربعينيات في أرياف السودان كله يعجبون بالشعر وبالكلمات الأدبية بصفة خاصة.

توتي والأحداث الوطنية

انقضى عام ١٩٤٤م وصاحبنا يستمتع بحياته السعيدة في أبي حمد وقد أصبح شاباً مشهوراً في ذلك النطاق الصغير في النادي والسوق والمسجد ثم

جاء عام ١٩٤٥م الذي كان يعرف أنه لن يكمله كله في عاصمة الرباطاب وإنما سيبقي علي الأكثر حتي بداية نصفه الثاني علي وجه التقريب، ثم ينقل إلي مدينة أخري ولكن حدثاً كبيراً مفاجئاً فيما تناقلته الأخبار فجرته جزيرة توتي عندما وقف رجالها الأباة بقيادة الشيخ مصطفي خالد «والد الدكتور طبيب داود مصطفي» بكل قوة وحزم أمام قرار استعماري بإجلاء أهل توتي عن جزيرتهم وتعويضهم قطعاً سكنية أخري في أرض المقرن الأمر الذ أدي إلي مظاهرة عنيفة اشتبكوا فيها مع قوات الأمن وسقط منهم شهيد فاضطرت الحكومة لتجميد القرار فهدأت الأحوال، كانت الصحف السودانية تنقل لأهل الأقاليم تفاصيل الحادث فننتظرها في أبي حمد بشغف بالغ أما أبناء توتي في الأقاليم فقد خفوا إلي جزيرتهم الغالية ليقفوا إلي جانب أهليهم باذلين في سبيل ذلك النفس والنفيس لان توتي هي وطنهم الصغير. وفي أبي حمد كان معنا من أهل توتي صديق الأمين المظف بالسكة حديد والذي أصر علي السفر فوراً كما قال وعلي حد تعبيره بالإجازة أو النقل أو بالاستقالة فأثار موقفه هذا في نفوسنا كل معاني الإجلال والإكبار وانتهزنا الفرصة لنقيم له حفل تكريم ووداع قبل مغادرته لأبي حمد بيوم واحد. وكان ذلك التكريم يعني من وجهة نظرنا تقدير الإحساس ا لوطني والإباء والشجاعة عند أهل توتي إلي جانب التضامن معهم وإشعار المستعمرين بأن كل بقعة في السودان تقف إلي جانبهم. أقمنا نحن الموظفين وأهل أبي حمد حفل شاي وتحدث البعض عن موضوع الحفل ودوافعه ووقف صاحبنا لينشد قصيدة طويلة لم يبق منها في ذاكرته إلا أبيات قليلة وها هو يسجلها للذكري والتاريخ:

تا لله نحن الآسفون حقيقة

لفراقكم يايها الصدّيقُ

سلم علي توتي الجريحة والذين

بها أبوا أن تستباح حقوق

وقفوا وقوف الأسد عند عرينها

حتي يبين لقاصديه طريق

فأهاجت القصيدة المحتفلين لدرجة بالغة لما في نفوسهم من غضب ضد الاستعمار وسياساته الرعناء فصفقوا وهتفوا واستعادوا من حين لآخر بعض أبيات القصيدة. فشعر صاحبنا بأن شاعريته لم تعد بعد ذلك الموقف محل شك أو تحفظ فانطلق يواصل مسيرته في ثقة واطمئنان ومن جانب آخر وقد شعر بأن هذه المشاركة السياسية البحتة ربما كفرت عن تقصيره في العمل الوطني في أبي حمد. هذا وصدّيق الأمين هو أخو المناضل العملاق في الحقل العمالي قاسم أمين.

الرباطاب وسرعة الجواب:

قال صاحبنا: والرباطاب أهل بديهة حاضرة وأجوبة مسكتة وسخرية لاذعة وفكاهة لا تضحك عامة المستمعين فحسب وإنما حتي الخصم الموجهة ضده. وكثيراً ما تستهدف فكاهاتهم الانتقام في أشد وأقصي صورة دونما غضب أو حقد.

وكان الطيب سعد العامل بالمحكمة الشرعية بأبي حمد رجلاً لطيفاً هادئاً يعرف كيف يسوق الحديث ببراعة وذكاء فطريين وكان كلما أتي مكتب البريد لأمر خاص بأعمال المحكمة يقف بالخارج خلف شباك المكتب ويتحدث لصاحبنا

الذي كان يرتاح إلي أحاديثه وحكايته ويطلب منه قبل مغادرة المكتب أن يحكي له شيئاً عن نوادر الرباطاب فكان يذكر نكتة أو نكتتين ليس من الضروري أن تكونا مضحكتين فقد كان بعض من نكاته مما يصور ذكاء الرباطاب وها هو صاحبنا يعصر ذهنه ليستخرج منه أدني قدر من أحاديث الطيب سعد وهاهو يروي بعضها:

أبشر أخوي أضرب:

قال الطيب: كان عندنا في المنطقة عمدة اسمه أبشر علي قدر كبير من الذكاء والدهاء وكان له ابن عم لايجيد التحدث إلي الآخرين كما أنه لايفهم من أحاديثهم شيئاً. وكان معجباً أشد الإعجاب بأبن عمه العمدة أبشر وكان يتابعه كظله وهو يحمل عكازاً مضبباً أي مكسواً بالجلد لتقويته كما كان هو نفسه طويلاً ضخم الجسم فأصبح بحكم التصاقه بأبن عمه العمدة بمثابة الحارس الذي لايغفل عن أداء واجبه لحظة واحدة. أما العمدة أبشر فقد كان يتضايق أول الأمر من تلك الحراسة التي فرضها عليه ابن عمه بالرغم من ثقته فيه وتقديره لمحبته له إلا أنه فطن فجأة لاستثمار تلك العاطفة النبيلة التي فرضها عليه ابن العم فأبقاه معه يسير حيثما يسير العمدة ويجلس في أي مكان يجلس فيه العمدة فيأخذ مكانه بجانبه ويأتي المتنازعون من الأهالي للعمدة ليفصل بينهم فترتفع أصوات هؤلاء حيناً كما ترتفع أصوات أولئك في النزاع حيناً آخر فيضطر العمدة إلي الوقوف إلي جانب أحد الرأيين فيما يري أن أصحابه علي صواب فيعترض الطرف الأخر علي موقف العمدة الذي يرفع بدوره صوته ليلزم ذلك الطرف المعترض بقبول حكمه وهنا ترتفع ضجة الأصوات كما هي الحال عند القرويين ولكن مثل هذا الموقف ينبه ابن عم العمدة أبشر إلي أن هنالك

مشكلة قد حدثت ولكنه لايعرف ماذا يقول أولئك الناس. والحل الوحيد عنده هوأن يستعمل عكازه المضبب فيمسك به ويخبط به الأرض مرات متتابعات ثم يقول لابن عمه: أبشر أخوي أضرب

فيرد عليه العمدة: اسكت يا دا النصيبة الوقت ما جا لاهسع

وهكذا تصل إشارة واضحة للمتنازعين في الطرفين بأن كارثة ما يمكن أن تحدث بواسطة ذلك الشخص الذي لايفهم كلامهم في الطرفين بل لا يهمه أن يعرف إلا أن كل ما يقلقله هو ارتفاع الأصوات خاصة إذا كان من بينها صوت ابن عمه العمدة الذي يحبه ويقتدي به قد يتعرض للخطر وان الحل الوحيد في عرفه هو استعمال العكاز المضبب.

ويتكرر ارتفاع الأصوات وهوأمر عادي عندالقرويين في الجدل والمناقشات فإذا بكلمة أبشر أخوي أضرب؟ تدوي في المكان ثانية وثالثة فيرد أبشر كالمعتاد وبكل هدوء:

اسكت يا دا النصيبة الوقت ما جا لاهسع

ولكن المتنازعين لايلبثون أن يصلوا إلي اتفاق خوفاً من مجئ الوقت الموعود استطاع العمدة أبشر تعويد المتنازعين من قومه علي سلوك الطريق الأسلم وهو الاتفاق وإلا فأنهم هم المسئولون عن عواقب الشقاق والذي يتمثل في ارتفاع الأصوات وهو عندابن عمه نذير الشر وكل الشر وبهذا الأسلوب تمت الإفادة من صاحب العكاز المضبب والذي لايفهم الناس كما أنهم لا يفهمونه.

الجري فوق البرش

وحكاية أخري يرويها الطيب لصاحبنا عن فصاحة أهله الرباطاب وهو واقف علي الجانب الخارجي لشباك المكتب. قال: كانت منطقة «الشريك» بالغرب جنوب

أبي حمد في زمن بعيد ذات غابات كثيفة وكان بها مختلف الحيوانات المفترسة ومنها الأسد فمر وسط الغابة ذات يوم شابان قيل أنهما أخوان وفي رواية صديقان وفجأة التفتا ليريا أن أسداً يشد الخطي خلفهما فأطلقا لساقيهما العنان أمامه فجري هو الآخر يطاردهما وكان أحدهما أسرع في الجري فابتعد إلي حد ما من الأسد ولكنه كان قلقاً علي أخيه فأخذ يلتفت إلي الوراء المرة بعد الأخري وهو يجري لكي يطمئن علي مصيره ويحثه علي المزيد من السرعة وأخيراً قال له: خذ قبضة من التراب واكشح بها عيني الأسد فأجابه الآخر علي الفور وهو مواصل للجري:

نان أنت جاري لك فوق برش؟

الحلقة الرابعة والعشرون

الرفاق البسطاء من صغار الموظفين كيف عاشوا سعداء في أبي حمد قبل خمسين عاماً..؟!

والخلفاء الأمويون كيف فتنوا بالليالي الزهر والتلال العفر في الشام كما فتن بها الرفاق في أبي حمد؟!

مرة أخري ينبه صاحبنا الي أن تسجيل مثل هذه الذكريات ونشرها ليس المقصود منها ! لحديث عن شخصية كاتبها خاصة إذا كان فردا عادياً أو موظفاً أو صحفياً أو كاتباً أو غير ذلك وإنما المقصود منها توثيق بعض الصور الاجتماعية الشعبية التي قد يكون مر عليها نصف قرن علي الأقل خاصة في المدن والقري النائية في الريف السوداني وقد تغيرت عقب هذا المدي الطويل المعالم والاسماء وأوجه الحياة بفعل التطور والحضاره مهما قل عطاؤها أو ضعف تأثيرها فيما قصدنا أم لم نقصد إنما تعني الدراسة والتاريخ ولغة التطور الاجتماعي وهي في النهاية ثقافة ومراجع هامة لأية دراسات مقارنة مستقبلاً دعنا بهذه المقدمة نوضح بعض الشئ إلي حد ما ضرورة الاهتمام بتسجيل مثل هذه الصور الشعبية ولنا في ذلك قدوة في رجال إعلام من القدماء والمحدثين ممن أهتموا بهذا اللون فكان أجود مما خلفوا ففي الماضي عندنا أبو حيان التوحيدي في (الامتاع والمؤانسة) وعندنا في السودان ود ضيف الله (في الطبقات) وفي العصر الحديث عندنا طه حسين في الأيام وتوفيق الحكيم في (يوميات نائب في الأرياف) وهو يحكي بصراحة كيف كان يقدم لهم في بيت العمدة بالقرية الطعام وقد التف حوله الذباب والأمثلة كثيرة وليس هذا مجال الحصر!

عودة إلي أبي حمد

كان صاحبنا سعيداً بالإقامة في تلك المدينة الصغيرة وهو موظف صغير في سن العشرين منسجماً مع (رفاق المسجد) وكان معجباً بالرباطاب وهو يعايشهم في عاصمتهم ويتأمل فصاحتهم وسرعة بديهتهم وكان هو وصديقه (أنور) يذهبان إلي شاطئ النهر في العصريات ليأخذا إحدي المراكب ويتجولا بها في النهر ثم يعيدانها إلي مكانها وهي في الواقع ليست (مراكب) وإنما (فلوكات) إن صح التعبير فمعظم الرباطاب بأبي حمد يحضرون إلي المدينة من الشاطئ الغربي للنيل بتلك الفلوكات ثم يتركونها علي الشاطئ في الصباح حتي إذا فكروا في العودة إلي الجزيرة (مقرات) لمنازلهم استعمل كل شخص أو شخصين أو حتي ثلاثة فلوكتهم في طريق العودة في المساء!

أما تلك الفلوكة فهي ذات تكوين بسيط للغاية .. إنهم يشقون عود النخلة القديمة والمقطوعة أصلاً إلي نصفين ثم يخرجون لباب النخلة منها بحيث يتم تجويفها ثم يربطون بينها بمسامير أو أسلاك فيشكل النصفان عرض الفلوكة من الداخل وبما أن أشجار النخليل متوفرة بالمنطقة شرق وغرب النيل فيكاد كل واحد يملك فلوكتة الخاصة فهي بالنسبة لهم بمثابة البسلكيت أو الحمار ولكن ميزتها أنها تعبر النيل!

الكارثة تكاد تحدث!

في أحد الأيام أخذ صاحبنا وصديقه (أنور) الذي هو في سنه إحدي الفلوكات ودخلا النهر وما كادا يبلغان نصفه حتي شعرا بأن الماء بدأ يتسرب إلي داخل المركب الصغير أخذ أنور إناء موضوعاً بداخلها ليغرف الماء الي خارجها ولكنه لم يفطن إلي قطع القماش والجوالات التي يضعها أصحاب

الفلوكة بين شقيها لسدً بعض الثغرات الصغيرة التي قد يدخل منها الماء أحياناً لقد نزع أنور وهويغرف الماء البسيط دون أن يدري إحدي تلك القطع الصغيرة من القماش وفجأة تدفق ماء النهر إلي داخل المركب من أسفل وبعد أن كنا علي سطح النهر بدأ المركب يغوص بنا إلي تحت وفجأة وصل الماء إلي اكتافنا فصرخ أنور أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ولكن بصياح شخص مرعوب باك أما صاحبنا فكان يفكر بينه وبين نفسه وبسرعة أأخرج وأسبح نحو الشاطئ سالماً ولكن صاحبي ماذا أفعل معه؟ أأتركه يغرق؟ لا.. ولكنه سيمسك بي وهو مذعور فيعوقني عن السباحة ونغرق الاثنين معاً.. ولكن صراخ أنور أفادنا فقد جاء المنقذ صدفة وناداني فلان أقلب المركب وامسكوا بها.. فنبهت صاحبي .. سأقلب المركب أمسك بها ولكنه أخذ يصيح لا . لا .. لا تقلبها ولكني لم اهتم لحديثه.. قال صاحبنا فقلبت المركب وخرج منها الماء وفجأة طفت علي السطح كما كانت في البداية. وغطس أنور ثم قفز إلي أعلي فأمسك بالمركب مثلي وإذا بالمنقذ يصل إلينا في أقل من خمس دقائق ويقول أبقوا ممسكين بالمركب وأمسك هو بها بيده اليسري وسبح باليد اليمني وفي لحظات بلغنا شاطئ أبي حمد.. ومازال أنور يتشهد باكياً!!

هذا المنقذ هو الصديق الرشيد بابكر الأحمر من أعيان المدينة الصغيرة ومن أصدقاء (رفاق المسجد) وله صلة وثيقة بصاحبنا أخذ ينظر إليهما مبتسما.. قال لأنور أشهد أنك حلبي وهو من صعيد مصر وقال لصاحبنا أشهد أنك جعلي وهو من منطقة شندي.

كرم الرشيد والجو الشاعري

كانت علاقات الرشيد بالموظفين في المسجد ودروس المسجد الدينية وفي

النادي وثيقة جداً وكان من حين لآخر يدعو (شلة) من أصدقائه الموظفين للعشاء بمنزله وكان العشاء. والأرض التي يتناولونه عليها طريفين للغاية فالعشاء وهو الكسرة الفطيرة باللبن المسكر ولاشئ غير ذلك وأمام منزل الرشيد رمال بيضاء عاليه يرقد عليها المدعوون فيطيب لهم الرقاد عليها تحت أضواء القمر الساطع حتي يأتي العشاء وبعده الشاي والقهوة ويطيلون من السمر حتي منتصف الليل!

وكان بين أفراد الشلة الشيخ عبد الله علي عبد الرحن كاتب المحكمة وهو أديب ولغوي وراوية للشعر، وكان يهتم بالبلاغة، فإذا ورد بيت من الشعر مما ينشده هو أو غيره يصيح مبتهجاً وبصوت عال: جناس.. جناس.. جناس.. وكان بعضنا لا يفهمها فلا يملكون إلا أن يضحكوا.. وكان سليمان عبود يعرف قصده فيقول لصاحبنا اقرأ أبياتاً من الشعر فيها الجناس لتطرب الشيخ عبد الله ويستمر السمر في تناول شتي صنوف الكلام والحكايات في جو ممتع للغاية حتي يغادر الرفاق منزل الرشيد وكثيراً ما كانت لقاءاتهم تتم في ليال قمرية صافية يتجاوب فيها ضوء القمر مع التلال البيضاء الصافية من الرمال..!

وتمر الأعوام تلو الأعوام ويتشتت عقد الرفاق وقليلاً ما يتلاقي اثنان منهم أو ثلاثة فما يطيب لهم الحديث إلا عن تلك الذكريات الغوالي، السمر الطويل وكرم الرشيد بابكر الأحمر والجلوس علي الأرض والرقاد علي تلك الرمال تحت أضواء القمر الساطع الزاهي..!

مقارنات ومفارقات

وتمر فترة أخري بعد فترة أواخر الأربعينيّات حتي الستينيّات وإذا بصاحبنا ينهل من أمهات كتب الأدب والتاريخ ومنها البيان والتبيين للجاحظ وأدب الكاتب

والمعارف لابن قتيبة والامتاع والمؤانسة للتوحيدي وغيرها وغيرها من كتب الأخبار والسير فإذا به يجد ما في بعضها يعيد إليه ذكريات أبي حمد فيا سبحان الله ... كيف يحدث هذا التوافق بالرغم من طول العهود وبعد الأماكن واختلاف مواقع الحياة حتي ليسأل نفسه أحياناً كيف يتم هذا التوافق بالرغم من وجود تلك المفارقات؟

ما يشتهيه عبد الملك وابنه سليمان

عبد الملك بن مروان رأس البيت الأموي الثاني في الخلافة وابنه سليمان بن عبد الملك يتركان لنا حديثاً عجباً.

قال عبد الملك لبعض جلسائه:

قد قضيت الوطر من كل شئ إلا من محادثة الأخوان في الليالي الزهر علي التلال العفر! وقال ابنه أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك الذي ورث الخلافة عن أبيه بعد أخيه الوليد: لقد ركبنا الفاره وتبطنا الحسناء، ولبسنا الليّن ، وأكلنا الطيّب حتي أجمناه بمعني مللناه أو كرهناه وما أنا اليوم إلي شئ أحوج مني إلي جليس يضع عني مؤونة التحفظ ويحدثني بما لا يمجه السمع وبما يطرب إليه القلب! أما المحطة الثالثة فنلتقي فيها برجل عادي لكنه شاعر مشهور هو ابن الرومي قال ابن السراج دخلنا علي ابن الرومي في مرضه الذي قضي فيه فأنشدته وأنا أداعبه وأروّح عنه قوله:

ولقد سئمت ماربي
فكأنّ أطيبها خبيثُ
إلا الحديث فإنه
مثل أسمه أبداً حديثُ!

والأمثلة التي نريدها كثيرة ولكن دعنا نكتفي بهذه النماذج الثلاثة فهي تعطينا الكثير آل عبد الملك بن مروان الذين أخذوا الخلافة بعد آل أبي سفيان وهم أبناء عمومة عاشوا جميعاً في أبهة الملك وترف الحياة حتي أنه لم يبعد شئ في نفوسهم إلا وكان في أيديهم ولكنهم كانوا يحسون بأن في نفوسهم أشياء اخري بسيطة كل البساطة يستطيع أن يحصل عليها أي شخص عادي من عامة الشعب هي قضاء ليال زهر بضوء الكواكب وعلي رأسها بالطبع القمر وفوق تلال عفر - غبراء - وبين أخوة يتسامرون بأحاديث حلوة خالية من التكلف والنفاق وإنما هي صادرة علي السجية وعلي الطبيعة.

تري ما هو الفارق بين هذه الحياة علي هذا النحو وبين تلك التي عاشها أولئك الرفاق في أبي حمد ولكن الفارق الآخر هوإن هؤلاء ملوك والرفاق أشخاص عاديون بسطاء ولكنهم نعموا فعلاً بما ظل يشتهيه. أولئك الملوك.

وحتي ابن الرومي فإنه لم يتشوق لا لشئ إلا للحديث وهو بالطبع مع من ألف وأحب من الأصدقاء والرفاق وقد أتاحت له مكانته الشعريه الرفيعة ان يجالس علية القوم ويستمتع بما يستمتعون به من أطايب الحياة ولكنه سئم ذلك كله حتي أصبح بالنسبة له شيئاً خبيثاً علي حد تعبيره وهو فقط يريد الحديث يريد السمر الطبيعي العادي فالحديث مثل اسمه حديث وكل حديث محبب..!

قال صاحبنا لقد عادت بي تلك القراءات عشرات الأعوام إلي أبي حمد وإلي الليالي الزهر والتلال العفر وأحاديث الرفاق والشيخ عبد الله يهز مشاعره (الجناس) في كلمات الشعراء وسمر الأصدقاء يتواصل في بساطة وبراءة وسماحة تغمو النفوس..!

فإلي لقاء ولنا عودة إلي أبي حمد في مواصلة لذكرياتها التي حوتها الحلقات السابقة بما في كل تلك الذكريات من حلاوة وطلاوة.

الحلقة الخامسة والعشرون

العالم الأديب الشاب بأبي حمد وأحاديثه الفكهة عن البهاء زهير والتجاني يوسف بشير

وممن التقي بهم صاحبنا وربطت بينه وبينهم أواصر الصداقة في «أبي حمد» أحمد التوم الحسين من قرية «الطوينة» إن لم أكن أخطأت غرب أبي حمد كان قد تلقي تعليمة في المعهد العلمي بأم درمان ولكنه لم يكمل دراسته حتي النهاية ومع ذلك فقد كان ملما بالفقه كما كان أديباً طريفاً كثيراً المحفوظ وكان يمثل جيلاً جديداً من شباب المعهد العلمي في ذلك الوقت. كان أحمد كثيراً ما يأتي إلي المدينة في أبي حمد ويحضر معنا خلال الأيام التي يقضيها بالمدينة حلقات الدرس التي سبقت الإشارة إليها في المسجد ويشارك مع الاساتذة برأيه وقد هيأت رابطة الأدب علاقة خاصة بينه وبين صاحبنا فكان يذهب معه إلي المنزل ويقضي معه بعض الأمسيات كما كان يبيت معه أحياناً فكانا يسمران ويضحكان إلي وقت متأخر من الليل كان المنزل الحكومي الذي يقيم به صاحبنا يسمونه منزل «مفتش الدريسة البريطاني» ويقع عند ورش القطارات وقريباً جداً من خط السكة الحديد، كان أحمدالتوم يقول لصاحبنا دعنا ننام خارج «الحوش» أو في الهواء الطلق وبذلك نكون قد اقتربنا جداً من قضيب السكة الحديد كانت القطارات وهي متحركة ليلاً بين المحطة والورش كثيراً ما تزعجنا لدرجة أنها توقظنا أحياناً من النوم. وفي إحدي المرات كان أحمد يضحك وهو يقول لصاحبنا: إن حكاية هذه القطارات معك تذكرني بوضع كان يعاني منه الشاعر البهاء زهير فسأله صاحبنا: ماذا كان يقول الشاعر الظريف

وكان هذا لقبه فأجاب أحمد: كان البهاء يسكن في حي تجاوره فيه امرأة أرمنية تحدثه بلغتها كلما رأته عند ساحة المنزل ظناً منها أنه أرمني مثلها كما كانت تدور قريباً من منزله ساقية ويسمونها الدولاب ومن جانب آخر يضرب بعض المتصوفة طبولاً في الذكر والمدائح ليلاً وبالإضافة إلي ذلك فقد كانت تدور قريباً منه طاحونة «رحي» قال أحمد التوم: وفي إحدي الليالي واجهته الأرمنية بكلامها وعلت الأصوات من المجموعات الأخري فكتب البهاء قصيدة ينفس بها عن ضيقه ورد فيها:

تكلمني بالأرمنّية جارتي

أيا جارتا ما الأرمنّية من طبعي

كلامك والدولاب والطبل والرحي

إلي الله ما اشكوه من ذلك الجمع

ضحك صاحبنا كثيراً وأعجبته أبيات الشاعر الظريف البهاء زهير لدقتها وظرفها وما عكسته فعلاً من ضيقه وحنقه. قال له صديقه أحمد عليك أنت بدورك أن تنشئ لنا بيتين فيهما تلك الشكوي وذلك الضيق. فأجابه صاحبنا بأنه وإن لم يتعود الارتجال في الشعر إلا أنه سيدندن وهو علي سريره حتي ينظم البيتين المطلوبين وكان شيطان الشعر حاضراً فما هي إلا برهة قصيرة حتي أخذ ينشدهما صديقه وهما:

أيا سائق الوابور مالك مزعجي

تنقّص نومي إذ تروح وإذ تجي

فما أنا ياذا في المحطة ناظر

ولا أنا كمساري ولا أنا قطْرجي

ويلاحظ هنا أنه قد سكن حرف الطاء في قطرجي وعمال السكة الحديد يفتحونها إلا أن صاحبنا اضطرته ضرورة الوزن وإن كانت كلمة «قطر» ينطقونها أساساً بسكون الطاء أو فتحها.

قال صاحبنا عجب أحمدالتوم للسرعة التي جادت بها القريحة كما أعجب ببيتي الشعر وتحولا من جديد إلي شتي صنوف الفكاهة الأدبية والنوادر والليل قد انتصف وفي الصباح قال أحمد لصاحبنا:

الجدل الفقهي

إني مختلف مع مولانا القاضي الشيخ الترابي في مسألة فقهية فهو يقول فيها كذا وكذا وأنا أقول كذا وكذا وسأذهب إليه في المحكمة وأجادله بشأنها. فنصحه صاحبنا بألا يناقش مولانا في هذا الموضوع فقد يغضب منه إلا أنه أصر فحدث ما كان متوقعاً فغضب منه مولانا القاضي الشيخ عبد الله دفع الله الترابي وطلب منه ألا يناقشه مرة أخري في ذلك الموضوع الفقهي وفي العصر التقي أحمد بصاحبنا وقال له منذ البداية:

كأنك كنت تقرأ ما كان سيحدث وحكي له الموقف برمته وعقب صمت قصير أخذ أحمد التوم يضحك وينشد بيتاً من الشعر:

ذاك قسطي من السماء فما

أضيع في العالم (الترابّي) قسطي!

كان صاحبنا يعرف أن هذا البيت في قصيدة «نفسي»للشاعر التجاني يوسف بشير وفي ديوانه (إشراقة) ولكنه لم يفطن إلي علاقة البيت بالمشكلة التي جاء أحمد التوم يشكو منها. شعر أحمد بنظرات الاستغراب في عيني صاحبنا فقال له:

مع من كانت مشكلتي؟

فأجابه:

مع مولانا الشيخ الترابي

فسأله أحمد أليست الكلمة الأخيرة التي قلتها الآن في إجابتك موجودة في بيت التجاني؟ وهنا فقط أدرك صاحبنا النكتة فضحكا معاً كثيراً.

وتجرني النكتة إلي حديث فيما بعد دار بيني وبين صديق أديب وثيق علاقة القربي بالتجاني يوسف بشير وكان منتمياً إلي الجبهة الإسلامية القومية قبل أن يلغي أبو فكرتها وجودها قلت له ألم تقف علي رأي قريبك التجاني في صاحب الجبهة وما سبب له من ضياع؟

فاندهش لكلامي ثم سألني وما العلاقة بين التجاني وصاحب الجبهة وبينهما ما بينهما من البعد الموضوعي والزماني ؟ قلت ولكن التجاني كان ينظر بإحساسه المرهف إلي المستقبل البعيد! فزادت دهشته ثم سألني مرة ثانية: وأين قول التجاني هذا؟ قلت في قصيدة نفسي وفي ديوانه إشراقة فكاد الصديق يجن قلت له هون عليك .. ألم يقل التجاني:

ذلك قسطي من السماء فما

أضيع في العالم «الترابي» قسطي

فضحك كثيراً ولم يصدق أن لفظة «الترابي» قد وجدت عندي هذا التحليل العجيب.. قلت له إن المكتشف الحقيقي ليس هو أنا وإنما هوصديق عالم أديب من الرباطاب وفي أبي حمد ولا شك أن الالتفاتة تشبه إلي حد بعيد طريقتهم وذكاءهم الفطري الذي تحدثنا عنه.

الشيخ تكرون

عندما أوشكت علي استهلال الحلقات الخاصة بفترة إقامتي بأبي حمد مع حرصي علي تدوين المعلومات الصحيحة مائة في المائة كانت تنقصني بعض المعلومات وخاصة فيما يتعلق بشيخنا وأستاذنا تكرون وعقب سؤال كثير علمت أن أحد أحفاده موظف معروف في بنك السودان وهو عبد الله جمال الدين تكرون وينتهي اللقاء بينه وبيني إلي الوعد بزيارتي في المنزل ومعه من تسهل زيارته لي من أعمامه آل تكرون وتمت الزيارة الكريمة فعلاً يوم الجمعة ١٢ أكتوبر ٢٠٠١ وكان ثمرتها هذه المعلومات الدقيقة:

الأسم بالكامل: الشيخ أحمد تكرون الإمام بدوي الميلاد سنة ١٨٨٩م بجزيرة «كُرْقُسْ»

التعليم: تلقي حفظ القرآن الكريم علي الشيخ بابكر الفكي علي هو وشقيقه مصطفي ودرس الفقه في نقزو قرية شمال بربر علي الشيخ ود السيد إبراهيم من الإشراف الخُفَّاب كما درس أيضاً في «أمكي» غرب محطة أبو ديس ثم في بربر نفسها.

تزوج سنة ١٩١٨م وخلف بنتين وثلاثة أولاد، هم الأمام وجمال الدين، والمبارك.

تاريخ الوفاة ١٩٤٧

التوسع الثقافي

ولكن ما لمسناه نحن الذين تلقينا عليه دروس الفقه في مسجد أبي حمد وتمكنه من الحوار والنقاش في شؤون الفقه والحديث النبوي وما دار بينه وبيني بصفة خاصة من مناقشة قضايا الأدب والشعر وما كان يحدثني عنه مما قرأه

في كتب السير والتاريخ كان يعني أن الرجل قد قرأ الكثير ودرس الكثير بتوسع وروية وتنوع لا يحصل عليه إلا من أخذ نفسه بالإطلاع البعيد المدي في عدد لايستهان به من المصادر والمراجع وبجهد ذاتي مباشر وأظن أن القارئ الكريم يمكن أن يلاحظ هذا التفرد في حديثه مع جلالة الملك عبد العزيز آل سعود في أحد مواسم الحج بمكة المكرمة وحوله كوكبة من علماء الإسلام كان في مقدمتهم الشيخ مصطفي المراغي شيخ الجامع الأزهر وقد تطرقنا لهذا الموقف في الحلقات السابقة لذا فقد رأيت أنه من الوفاء لشيخنا هذا العالم الجليل أن نسجل هنا ما حصلنا عليه من سيرته الذاتية بدقة كافية للتوثيق والتأكيد.

قال صاحبنا: وأفادني آل تكرون لدي زيارتهم لي بمنزلي أن صديقي العالم الشاب أحمد التوم الحسين قد رثي استاذه وأستاذنا جميعاً الشيخ تكرون عند وفاته بقصيدة رائعة قال فيها:

قلب تحطم واستباح شجونهُ

والدمع رقرق واستجاش هتونهُ

والروض أقفر من فواقع نوره

وأصفرَّ من إعصاره نسرينُه

لما دعا داعي المنية أحمداً

والليث فــارق بيته وعرينهُ

أما أحمد هذا العالم الشاب والأديب والشاعر فقد تُوفي كما أفادني الوفد الكريم بعد وفاة الشيخ بست وعشرين سنة أي عام ١٩٧٣. ولئن أسفت علي شئ فهو أن الظروف لم تتح لي الاتصال بأبي حمد عقب مغادرتي لها عند أو قبيل نهاية عام ١٩٤٥م حتي تتابعت لدي الأخبار المؤسفة بالوفيات المتلاحقة

رحم الله تلك الشخصيات الكريمة التي سأظل احتفظ لها في الذاكرة والوجدان بأغلي الذكريات وأحرّها وأعطرها.

وبعد فإن هذه الحلقة هي خاتمة الأحاديث عن أبي حمد لأن الانتقال بعدها سيكون إلي الدامر وإذا كنا قد بدأنا حلقات أبي حمد بذكري شيخنا تكرون فإنها قد جاءت الخاتمة وهي مسك الختام حقاً وإذا كانت دنيا جبيت وسنكات علي صغرها قد عكست الكثير من الانطباعات فإن أبا حمد قد كانت أكثر عطاء وتنوعاً علي صغرها بدورها ولاشك أن ما جبل عليه أبناء «رباط» من حيوية الطبع وذكاء الفطرة وفصاحة اللسان ومما أمكننا التعرف علي نماذج محدودة منه بحاجة إلي اهتمام الدارسين والباحثين إلي العكوف علي بواعثه ومصادره وأسبابه فهم ليسوا كقبائل الشمال من الشايقية والدناقلة والمحس كما أنهم ليسوا كقبائل الجعليين في الجنوب وقد نزح جدهم رباط غاضباً منها متجهاً إلي الشمال وأقسم كما تقول الروايات إن صحت أو الأساطير أنه لن يلقي عصا التسيار في أرض فيها جعليون وهم أهلوه فما استقر إلا في منطقة أبي حمد لأنه لم يجد هناك من يقول إنه جعلي!

وهناك رواية أخري تقول إنه لم ينزل في أبي حمد وإنما في «كُرقُس» وطن الشيخ تكرون فأقام فيها حتي أدركته الوفاة وقبره فيها محدد المكان وقيل لي إن الأستاذ الباحث الطيب محمد الطيب قد أورد هذه الرواية فيما كتب.

وختاماً وداعاً آل رباط وإلي لقاء

الحلقة السادسة والعشرون

الحركة الوطنية الهادرة في النادي والمدينة بالدامر وعلاقتها الوثيقة بعاصمة الحديد والنار!

أيا دامر الجذوب لا أنت قرية

بداوتها تبدو ولا أنت بندر

صاحب هذا البيت الشعري الفكه الساخر هو الشاعر توفيق صالح جبريل وهو مطلع لقصيدة رائعة عامرة لا تسخر من الدامر كما يتبادر ذلك إلي ذهن القارئ أو السامع لهذا البيت الذي تناقلته الأفواه ضاحكة، وإنما هي قصيدة لها مثيلات كثيرات في ديوانه الذي صدر عقب وفاته في أربعة أجزاء بجهد خاص من الأخ الكريم الدكتور أبو سليم ثم تجددت الطبعة الأولي فيما بعد، لقد تغني توفيق بالدامر وبالطبيعة حولها، وبالجزر والشواطئ غربيها وبموقع مقرن نهر عطبرة بنهر النيل جنوبي مدينة عطبرة وهكذا.

وقد عارضه بقصيدة لها وزنها وقافيتها صاحبنا قائلاً:

وما ضر لو فيها من البدو مسحة

ومن حضر البلدان شكل ومنظرُ

ومن عجب إن تسعد الناس بلدة

بذوقين شتى إن هذا ليؤثر

وارتاح أهل الدامر لهذه المعارضة التي ظنوا أن توفيق قد سخر فيها من مدينتهم وان هذه الأبيات إنما جاءت رداً علي سخريته إلا أن الأمر كان مختلفاً جداً.. فتوفيق رحمه الله كان يريد أن يقول إن في الدامر طبيعتين: الحضارة

والبداوة معا ومن لم يعجبه هذا اللون وجد بغيته في اللون الأخر لذا فإن صاحبنا لم يفعل أكثر من إعطاء المزيد ذلك لان توفيق كان في الواقع مفتوناً بالدامر وبحياته الطويلة فيها وبصداقاته وكل ذكرياته مما سنتطرق إليه إن شاء الله في الحلقات التالية. أما السخرية في شعر توفيق علي وجه العموم فهي ظاهرة لازمة في كل حياته ولم يتحرج من توجيهها حتي لنفسه! لعله كان من محاسن الصدف أن ينقل صاحبنا لدي نهاية عام ١٩٤٥م من أبي حمد إلي الدامر فيجد فيها من الإخوة والأصدقاء مجمُعات منتقاة كان في مقدمتها صديقه وأستاذة٤فيما بعد مأمور المركز توفيق صالح جبريل }ي «المديرية الشمالية» الممتدة من شندي جقوبا إلي حلفا شمالا آنذاك، وهو الشاعر امُمالي والوجداني والشاعر المفتون بالطبيعة والشاعر الوطني الثائر والسياسي العريق الذي تطرق إلي أخطر الأهداف الشعرية الحية والمؤثرة.

البداية في الدامر

ما لبث صاحبنا إن انسجم في مجموعات نادي الدامر من التجار والموظفين والعمال فأحس بدفء غامر ليس له مثيل في تجاربه السابقة سواء كان ذلك في جبيت أو سنكات أو أبو حمد حيث كان الانصهار في عضوية الأندية هناك محدوداً والانشغال بالأنشطة الوطنية والثقافية محدوداً كذلك أما في الدامر وفي النادي بصفة خاصة فقد كان الأمر علي النقيض تماماً لأن الدامر نسبياً اكبر والسكان أكثر بالإضافة إلي وجود المديرية بما تضم من حجم لا بأس به من العاملين بالحكومة، والي جانب ذلك كله ما شهده النصف الثاني من الأربعينيات من تأسيس الأحزاب السياسية في السودان وان كانت مذكرة مؤتمر الخريجين الأولي والخاصة بتقرير المصير قد رفعت إلي الحاكم العام وهي

موجهة لدولتي الحكم الثنائي في ٣ ابريل ١٩٤٢م بتوقيع الأستاذ المهندس إبراهيم أحمد رئيس المؤتمر في تلك الدورة. ومما تجدر الإشارة إليه أن تأسيس نادي الخريجين «شيخ الأنديه» قد تم في عام ١٩١٨م بأمدرمان كما أن انبثاق حركة الخريجين باسم المؤتمر من داخل ذلك النادي قد أعلنت عام ١٩٣٨م فكانت بمثابة الانفجار العاصف الذي لم ينحصر في أم درمان فحسب وإنما اتسعت أصداؤه فبلغت مختلف مدن السودان في الأقاليم كافة، فإذا بالأندية تنتشر ومن داخلها تشتعل نار الحركة الوطنية باسم مؤتمر الخريجين في الجولة الأولي وباسم الأحزاب السياسية في الجولة الثانية مع تفاوت في القوة والنشاط وفق أحجام الناشطين عدداً ومستوياتهم وعياً وثقافة هنا أو هناك.

في هذا الجو المشحون بالحرارة والحركة جاء صاحبنا إلي الدامر فإذا بنادى الدامر العتيق يضج بالنشاط وإذا به كخلايا النحل أعضاؤه لا يستكينون للراحة أو السكون كما إنهم لايكترثون لكلمات بعض الحذرين أو المتخوفين لأن المدينة فيها السادة البريطانيون: مدير المديرية، ومفتش الرئاسة، ومفتش المركز، والأجهزة الأمنية التي كان من واجبها إن تتابع النشطاء وتكتب التقارير عنهم باعتبارهم منشغلين بالسياسة ضد السلطة الحكومية خاصة إذا كانوا من الموظفين!

لقد وجد صاحبنا في الدامر المناخ الذي يحبه ويتعشقه وفي النادي الليالي السياسية والمحاضرات والندوات الثقافية وجمعية النادي الأدبية ومجلتها المخطوطة واسمها «النجم» وأعضاء النادي ينتمون في مجموعهم لمؤتمر الخريجين ثم يتفرقون في تبعيتهم للأحزاب: أشقاء، اتحاديون، شيوعيون ، أمة ، قوميون، وكان التنافس بينهم في هذا المجال الحزبي شديداً للغاية

ولكنهم لم يكونوا يسمحون لذلك التنافس بأن يؤثر علي علاقاتهم الاجتماعية فلم يعرفوا في مجتمعهم ذاك آية خصومات أو عداوات أو سبابا ولكن الاتهامات البريئة المضحكة والساخرة كانت تأخذ طريقها بينهم فأتباع الأحزاب الاتحادية كانوا يتهمون أعضاء حزب الأمة بأنهم مطايا الإنجليز وكان هؤلاء يتهمون أعضاء الأحزاب الاتحادية بأنهم عبيد المصريين الذين اشتروهم ب «ذهب المعز» وكان بين أنصار الأحزاب الاتحادية تنافس من جانب أخر «فالأشقاء» عند «الاتحاديين» ليسوا كلهم من الصفوة وإنما هم في مجموعاتهم الكبيرة من العامة وقد تعمدوا توسيع قاعدتهم بإيواء كل من هب ودب. والاتحاديون في نظر الأشقاء قوم لا معرفة لهم بالسياسة وان فئاتهم القليلة التي يعترف الأشقاء بما لها من حظ في الثقافة لا تصلح لان تكون حزباً سياسياً وإنما هم مجموعة ضئيلة من المثقفين تتحرك داخل أبراج عاجية بعيداً عن الجماهير ومثل هذه الفئة لايمكن إن تشكل حزباً سياسياً مؤثراً في حياة الناس فهي اقرب إلي جمعية فكرية معزولة ومترفعة عن الخوض في معارك الحياة العامة، والعجيب أن نادي الدامر كان يأوي كل هذه الاتجاهات التي كثيراً ما تأتلف أو تختلف أو تتفاخر أو تتناحر ولكن علي نمط حضاري واحد.

أتصال القيادات بالجماهير

كان أعضاء نادي الدامر سواء كانوا من العاملين في السوق و الأعمال الحرة أو دواوين الحكومة يستقبلون البريد وما تحمله الصحف القادمة من الخرطوم بكل حرص واهتمام فيطلعون علي المعارك السياسية وهي تعكس الكثير من القضايا التي كانت تصل إليهم أصداؤها وتتأثر بها أنشطتهم أنفسهم وكانت الصحف في جانب آخر تحمل الكثير كذلك من الدراسات

والتحليلات التي يكتبها أشخاص لهم الباع الطويل في معرفة السياسة والاقتصاد والتاريخ فتصبح تلك المقالات في حد ذاتها مادة ثرة لمناقشتها والإفادة منها في مجالسهم. ونذكر للحقيقة والتاريخ إن تلك الموضوعات التي كانت تنشرها الصحف السودانية بأقلام كبار الصحفيين والكتاب في تلك الحقبة وحتي منتصف الخمسينيات، كانت تشكل مستوي رفيعاً للغاية في مضامينها مما يؤكد أن أصحابها دخلوا معتركات السياسة والصحافة بعد أن تسلحوا بالدراسات الثقافية عامة والأدبية خاصة التي أمدتهم بالديباجة المشرقة والبيان الناصع والموضوعي والعبارات الرنانة التي لا تؤثر علي صفاء الأسلوب وجاذبيته الأمر الذي افتقدناه في صحافتنا منذ زمن طويل! ومن جانب آخر كان البعض من كبار السياسة يزورون الأقاليم ليؤدوا عملاً إعلامياً يشرح أنشطتهم أو ليطرحوا علي جماهيرهم تخطيطاً معيناً لايريدون أن يفرضوه عليهم فرضاً وإنما يفضلون طرحه ومناقشته مع تلك الجماهير للإفادة من آرائها حيناً ولإقناعها حيناً آخر بما يريدون الأخذ به من الأساليب السياسية وهو أسلوب حضاري تنقله إلينا اليوم الأجهزة العالمية الوافدة من صحف وإذاعات ومؤلفات حول ما تنتهجه أحزاب الحكومة والمعارضة في دول كبري مثل أمريكا وبريطانيا وفرنسا حينما تتصدي لقضايا كبري تحرص علي أن تكون الشعوب متفقة مع تلك الحكومات فيما ذهبت إليه إن لم تكن بالإجماع فبالأغلبية!

كان هذا يحدث عندنا في السودان قبل خمسين عاماً ونحن نخضع لسلطة استعمارية إلا إنها لم تكن تتدخل في مجال الحركة الفكرية مالم يصحبها تحرك عملي مضاد لأمنها ومصالحها.! كنا في نادي الدامر نستقبل القيادات الحزبية الزائرة من حين لآخر كما كنا ندعي لاستقبالها في نادي الأشقاء بعطبرة وفي

غيره: محمد أحمد محجوب، مبارك زروق، محمد نور الدين، عبد المنعم حسب الله، حسن الطاهر زروق وغيرهم، كنا نستوضح وكنا نناقش، وكان بعضهم يحضر للدفاع عن بعض المتهمين في القضايا السياسية بالمحاكم وفي جلسات مفتوحة يشهدها الجميع أمام قضاة من الإنجليز!!

سودان القومية الوثابة والخلاقه!

كنا في تلك الفترة حتي نهاية الأربعينيات مشاركين في مرحلة ثرة بالعطاء الوطني السياسي والثقافي قال صاحبنا: وهل يمكن أن ننسي تلك الفترة النضالية وعلي سبيل المثال أولئك الإخوة وأولئك الرفاق في نادي الدامر إن لم تستطع الذاكرة الاحتفاظ بأسماء بعضهم إلا إنها لم تنس أشخاصهم ووجوههم وابتساماتهم ونكاتهم وقفشاتهم وما زالت وجوههم تنعكس علي شريط الذكريات: توفيق صالح جبريل، صديقاه باقر وقلندر اللذين قال فيهما:

وصحبيَ فيهم باقر وقلندرُ

وما العيش إلا باقر وقلندرُ

بابكر عثمان البشير، محمود وعبد الرحيم المغربي، مسعد حنفي، محمد الفاضل،الريح الأمين، يوسف حلمي، أحمد الطيب، محمد أحمد الإمام، محمد الأمين الغبشاوي، علي كرار، إبراهيم كليب، القاضي عثمان الطيب، علي زكريا، الرشيد محمد علي، طه أبو سمرة، عوض أبو رفاس، محمد ادم الطيب، وكلهم من الموظفين.

أما من التجار وأهل الدامر فهو يذكر: أحمد عبد الله حسن، محمد عبد المتعال السيسي، حاج فتح الرحن حمد، حسنين السيد، أحمد النجا،

والشيخ النجا، عوض الشيخ عبد الكريم أبرسي علي أبّرسي، ومجموعة ال آبّرسي، حسن فخري المطبعجي، مصطفي أبشر، حامد الاحيمر، حسن علي وأخوه فرج الله، محمود إبراهيم النعيم الوسيلة أونسة وعثمان السيد أونسه واخوانهما الصاغه محمد بدر وحمد بدر ولأحمد مدني الموظف معهم حكاية طريفة سنتعرض لها إن شاء الله أخيراً في ذكريات الدامر ونادي الدامر وبوفيه حسن طه المحيسي!

هذا جزء قليل من تلك الجماعات التي كانت تلتقي في النادي أو في السوق وكان لها اهتمامها البالغ بالحركة الوطنية ودعمها ومساندتها مادياً وأدبيا وكان أحمد عبد الله حسن امة وحده في بذله وسخائه. كان يستقبل في منزله ويودع القادمين والمغادرين من الموظفين في مآدب يقيمها باسم أهل الدامر وبمشاركة مستمرة في النادي وفي التخطيط والتنفيذ لأي تحرك وطني أو ثقافي أو اجتماعي في النادي أو المدينة - رحم الله الذين ذهبوا وامد بالصحة والعافية من بقي منهم. قال صاحبنا: إن ما كان يحدث في الدامر في ذلك العصر الذهبي المتألق لم يكن مما تنفرد به الدامر وحدها وربما كان مجهودها أقل مما تقدمه مدن أخري تفوقها في عدد السكان والحركة الاجتماعية والاقتصادية وخلافها ففي عطبرة مثلاً وقريباً منها كان الجهد مضاعفا وكذلك الأمر في العاصمة المثلثة كما كان اسمها وأعجب منها كلها ود مدني عاصمة الجزيرة وقلبها الخفاق ومجموعة أحمد خير صاحب فكرة مؤتمر الخريجين أساسا!! وأما عن الأبيض عاصمة كردفان فحدث عن البطولات ولا حرج وقد رحل عنا منذ قريب قائد المسيرة المرحوم حسن عبد القادر!

قال صاحبنا: تري لو سرنا بعد إعلان الاستقلال بتلك الروح القومية الوثابة والخلاقه فكيف سيكون وضع السّودان اليوم؟.. سؤال اترك الإجابة عليه للجميع!!

الحلقة السابعة والعشرون

أشقاء الدامر وأشقاء عطبرة كانوا يسجلون ثقلاً ضخماً للحركة الوطنية في المنطقة والمحلاوي كان قطب الرحي ومحمد نور الدين دخل المعركة ثرياً ومات فقيراً في المساكن الشعبية ببحري

كان لأشقاء الدامر نشاط حثيث وراء الليالي السياسية والمظاهرات واستقبال الزعماء القادمين من المركز العام للمؤتمر في المرحلة الأولي ومن رئاسة حزب الأشقاء في المرحلة الثانية وكان لهم تنسيق وثيق ومتصل مع زملائهم أشقاء عطبرة برئاسة إبراهيم حسن المحلاوي. وكان الزعيم محمد نور الدين كثير الزيارات لعطبرة والدامر في الفترة ما بين ١٩٤٩م التي تلاها رحيل صاحبنا إلي العاصمة. وكان يتابع بصفة خاصة النشاطات السياسية للحركة العمالية في عطبرة وإن كان معظمها أو بعضها يتم تحت قناع الحركة النقابية. ويذكر صاحبنا أن السيد محمد نور الدين جاء إلي الدامر مرة ليتعرف علي أوضاع القادة العماليين السجناء عقب إحدي المظاهرات العنيفة التي سجن بعدها عام ١٩٤٨م قاسم أمين والشفيع أحمد الشيخ وعبد القادر سالم وآخرون فأجري أحمد عبد الله حسن اتصالاته المعهودة مع الجهات المختصة مستغلاً علاقاته الطيبة بها فدلتنا علي مواقعهم خارج السجن من خلال ساعات العمل اليومي حيث وجدنا قاسم أمين يعمل في تنظيف حديقة منزل المدير فتمكنا من مقابلته ومواساته وقدم له محمد نور الدين مبلغاً كبيراً له ولزملائه السجناء من القادة العماليين للإستعانة به لأنفسهم ولأسرهم وكان هذا دأب محمد نور الدين الذي دخل ميدان السياسة غنياً وخرج منه فقيراً يمرض ويموت في المساكن الشعبية بالخرطوم بحري في منزل أحد أبنائه.

الأنشطة الحزبية في نظرة عابرة:

قال صاحبنا: ولا أخفي أن الإعانات التي كان يصل بعضها من مصر وكان بعضها يدفعه التجار والموظفون في السودان كانت بمثابة دعم قوي للحركة الوطنية لكيلا تخبو نارها ولكيلا يتألم ضحاياها أو يجزعوا لمصائر أسرهم وكانت معظم زيارات محمد نور الدين تستهدف أما هذا الغرض أو أغراض التوعية الوطنية وشرح سياسات حزب الأشقاء مرحلياً من حين إلي اخر.

هذا فيما يختص بالأشقاء أما الاتحاديون فلم يكن لهم نشاط شعبي في الدامر وربما الشئ نفسه في المدن الأخري وإنما هم كما سبق أن أشرنا إلي ذلك فلاسفة وطنيون في أندية العاصمة. أما حزب وحدة وادي النيل فكان وجوده الفاعل أقل من الاتحاديين بكثير. وكان أعضاء حزب الأمة ليس لهم إلا وجود ضئيل في ضاحية الدامر وثقلهم كما هو معروف في الغرب وبعض مناطق الجزيرة. ومن الطريف أن رئاستهم قد بعثت إلي الدامر بوفد برئاسة عبد الله نقد الله (الأب) بصحبة (الأصم) وآخرين فنشط الأشقاء علي إفشال ليلتهم السياسية فقوبلوا بهتافات معادية وقوطع خطباؤهم بالسخرية ومع أن الأمير نقد الله الكبير كان خطيباً مفوهاً إلا أن الموقف الحزبي المعارض لم يساعده علي الاستمرار في الخطابة واكتشف أنه لم يكن لهم رصيد يذكر في مدينة الدامر إلا بعض الأنصار الذين وفدوا من ضواحيها علي قلتهم وسرعان ما انتهت تلك الليلة السياسية إلي لاشئ.

وفي الصباح الباكر بعث صاحبنا ببرقية إلي (المركز العام) لتسليمها لجريدة المؤتمر وكان يحررها حينئذ الأستاذ علي حامد ونصها:(شيعنا الأمة بالدامر ودفناها واستغفرنا لها فأبلغوا ذويها العزاء) فنشرتها جريدة المؤتمر وعقبت بما معناه.

رحمها الله، لقد قمنا بواجب العزاء. وفي الكلمات روح علي حامد الفكهة والساخرة فأحدثت قصة البرقية بعد نشرها والتعقيب عليها ضجة كبيرة وأحاديث فكاهية متنوعة خاصة في مدينة الدامر وفي النادي والسوق.

دولتا الحكم الثنائي والسودان

أجرت دولتا الحكم الثنائي اتصالات مع بعضها منذ عام ١٩٤٦م وكان الغرض منها إبرام اتفاقية جديدة هدفها تحقيق المزيد من استكمال السيادة المصرية وبحث مصير الوضع في السودان. وكانت حركة مؤتمر الخريجين اليقظة والتي بدأت بمذكرة عام ١٩٤٢م ظلت تواصل ترقبها ومتابعتها للأحداث الدولية فحرصت علي أن يصل صوت السودان للمتفاوضين من المصريين والبريطانيين معاً فقررت الأحزاب السودانية أن ترسل وفداً إلي مصر لمقابلة المسئولين هناك والتنسيق معهم بحيث لا يكون ثمة خلاف بين ما تطلبه مصر وما ينادي به السودانيون مما يمكن أن يستغله البريطانيون فيستندوا اليه وتنهار المفاوضات دون أن تحصل مصر أو يحصل السودان علي شئ.

وبما أن الأحزاب السودانية باستثناء حزب الأمة تميل إلي إيجاد صورة من الترابط مع مصر صورة من صور الوحدة أو الاتحاد فإنها عملت علي التفاوض مع حزب الأمة لإيجاد صيغة مشتركة مقبولة للجميع تحقق حلاً وسطاً دون الوحدة ودون الاتحاد (تحت التاج المصري) ودون الاستقلال المنفصل تماماً عن مصر بما يتعارض وطبيعة تلك الظروف فكانت الصيغة التي تم الاتفاق عليها هي (تقرير مصير السودان في اتحاد مع مصر وتحالف مع بريطانيا)!! وقد نجحت كلمة السودانيين وحرص الجميع علي نبذ الخلافات في هذه المرحلة علي الأقل وأوقفت صحف الأحزاب الخصومات والمهاترات وكما جاء في (مذكرات

أغبش) الأستاذ عبد الله رجب (حتي لقد كانت الصحافة في تلك الأيام كتلة واحدة ضد الاستعمار البريطاني).

الوفد السوداني لمصر

في هذا الجو الوطني المتوحد كُوِّن وفد السودان برئاسة اسماعيل الأزهري (الأشقاء) عبد الله ميرغني (الاتحاديين) عمر الخليفة عبد الله (وحدة وادي النيل) أحمد يوسف هاشم (القوميين) عبد الله نقد الله والدرديري نقد (الأمة) أحمد خير(مستقل).

قال صاحبنا: تحرك هذا الوفد الجامع لوجهات النظر السياسية السودانية بالقطار إلي مصر في مارس ١٩٤٦م وفي الدامر أقمنا لتلك المناسبة استقبالاً شعبياً لم تشهد المدينة له مثيلاً ثم صحبنا الوفد: أحمد عبد الله حسن، محمد عبد المتعال السيسي، وكاتب هذه الذكريات. وفي عطبرة القي صاحبنا قصيدة سياسية في محطة السكة الحديد وقد حملته الجماهير علي أكتافها عند نافذة قمرة السيد الرئيس فندد بالاستعمار وأعلن عن تصميم الشعب السوداني علي انتزاع حريته مهما كان الثمن وكانت التضحيات ولكن شعره لم يكن قد نضج بعد في نظره وبالصورة التي كان يتطلع اليها. وأدهشه كما أدهش الآخرين الشاب (خليفة عباس العبيد) الذي ألقي كلمة سياسية ساخنة. وكان البعض ممن يعرفونه قد خشي عليه لا لفقدان وظيفته الإدارية التي خص بها الخريجون الجدد فحسب وإنما احتمال اعتقاله في الحال.

أما صاحبنا فقد أبلغه عربي عبد الباسط (نائب المأمور) الحديث التعيين بدوره في الدامر أنه حال دون اعتقاله منذ ساعة واحدة وقال له إن مأمور عطبرة الفاتح البدوي كان مصراً علي ذلك لولا أن عربي عبد الباسط قال له :إنه

فتي حديث السن والتجربة وحرصك علي اعتقاله وتقديمه للمحاكمة في قضية سياسية وفي مثل هذه الأيام سيخلق منه زعيماً سياسياً..

تحرك القطار من عطبرة وبقي جماعة الدامر الثلاثة مع السيد الرئيس في (القمرة) يسألون ويستوضحون فيجيب الرئيس أزهري بكل تواضع وبساطة مع الثقة الكاملة في مصير الوفد وقد تخوف أحدهم من أن الإنجليز قد يحولون دون مواصلة رحلة الوفد قبل حلفا ولكن القطار غادر محطة عطبرة والشعب يلتف به في حشود تفوق الوصف والخيال واستمر حديثنا. قال صاحبنا مع الرئيس حتي بربر حيث ودعناه وعدنا إلي الدامر وهكذا كانت الحياة عملاً وطنياً ومسئوليات وجدية وثقافة عامة، ليس في مدينتنا الدامر وحدها وإنما في كل مدن السودان وعواصمه بصفة خاصة والشعب يتطلع إلي جلاء الإنجليز وتحقيق الحرية بلا خوف ولا تردد باذلاً في سبيل هذه الغاية المقدسة النفس والنفيس.

الأندية وهيمنة السلطة

كان نادي الدامر مثل غيره من الأندية الخاصة بالخريجين يخضع لمرسوم معين بأن يرأس لجنته موظف بريطاني كبير أو من ينوب عنه من البريطانيين إلا أن الخريجين قد تمردوا علي ذلك المرسوم في كثير من المدن حتي قضوا عليه تماماً وقد حرصنا في لجنتنا علي التحرر من تلك الهيمنة الاستعمارية كالآخرين وانتخبنا لجنة سودانية خالصة وأخترنا لها من نثق فيهم من الموظفين وإخوانهم التجار رئيساً وأعضاء وبدأ النشاط الأدبي والثقافي والسياسي منذ عام ١٩٤٦م يزدهر ازدهاراً عظيماً، ففي هذا اليوم محاضرة وبعد أيام ندوة وفي فترة أخري ليلة شعرية وفي مناسبة ما ليلة سياسية ولم تكن أنشطتنا الثقافية

كلها معزولة عن المحاور الوطنية والسياسية. ثم أصدرنا مجلة (النجم) التي سبقت الإشارة اليها وكنا نبعث ببعض أعدادها إلي المركز العام في أمدرمان فتنشر عنها جريدة المؤتمر وفيما بعد جريدة الأشقاد الأخبار الإقليمية والأنشطة المحلية وتثني عليها بما كان يبعث في نفوسنا الكثير من الثقة والإقدام.

الربط بين النشاطين الوطني والنقابي

قال صاحبنا:

وكما سبقت الإشارة إلي نادي الاشقاء بعطبرة فإن الاتصال بينه وبين نادي الدامر كان علي درجة عالية من الاهتمام والجدية وتبادل الزيارات والمناقشات وكان لرئيسه إبراهيم حسن المحلاوي رحمه الله وهو رئيس الحزب بعطبرة علي ما أذكر- كما قال صاحبنا. كان رئيساً لحسابات مصلحة السكة الحديد الأمر الذي جعل الضغط علي الجهات الاستعمارية محلياً حاداً ومزدوجاً وكانت اجتماعاتنا نحن أعضاء لجنة حزب الأشقاء بالدامر - كما قال صاحبنا بزميلنا المحلاوي في عطبرة تكشف لنا عن الكثير من المناورات الاستعمارية التي تواجهها الأحزاب الاتحادية وعلي رأسها حزب الأشقاء بذكاء وقاد وحماس وطني فائق وكانت لاتصالات المحلاوي برئاسة الحزب في العاصمة حركة لا تكاد تنقطع وقد استخدمت فيها الوسائل كافة من الفريقين. وكان الحزب من جانبه يعتمد علي المحلاوي في الكثير من نجاح خططه السياسية بالمنطقة لأن وجوده في عطبرة يعني مركز الثقل حيث توجد النقابة العمالية الكبري والعملاقة التي كان قادتها علي مستوي عال من الفهم السياسي والإحساس الوطني الضروريين آنذاك.

صحيح أن قادتها كانت لهم انتماءات ونزعات يسارية كانوا يستعملونها بكل حصافة وحذر بحيث تأخذ نزاعاتهم مع الحكومة في الغالب الأعم الطابع المشروع في التنظيم النقابي والحركة المطلبية من أجل إنصاف العمال وتطوير مستوياتهم الوظيفية والمعيشية وخلافها.

قال صاحبنا: ومع ذلك فإن قاعدتهم الكبري لم تكن مرتبطة بنزعاتهم اليسارية وإنما كانت تعطي ولاءها الوطني لأحزاب اليمين وعلي الأخص حزب الأشقاء ذي الجماهير العريضة ومع هذه المفارقات في بنية نقابة السكة الحديد فإنها كانت قمة وقاعدة قوية الارتباط والتوحد في مجالها النقابي متضامنة في تحركاتها حتي علي مستوي إضراباتها التي كانت تشل كل مظاهر الحياة في السودان شللا كاملاً

قال صاحبنا:

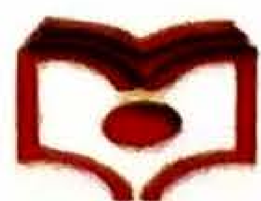
إن الباحثين من مؤرخين وسياسيين واجتماعيين لا بد لهم عند التصدي لكتابة تاريخ الحركة الوطنية في السودان ونضالها الجبار والذي توجته بأنتزا ع استقلال السودان لابد لهم م أن يعطوا الحركة العمالية بقيادة اتحاد العمال ونقابة عمال السكة الحديد القدح المعلي في إنجاز مهام العمل الوطني كله بكل تضحياته وأزماته وفي النهاية بكل انتصاراته فقد كانوا شركاء للأحزاب السياسية فاعلين ومؤثرين ومن حقهم أن يجدوا نصيبهم الكامل تسجيلاً للحقيقة والتاريخ.

الفهرست



جعفر حامد البشير

- شاعر وأديب سوداني ، عمل بالصحافة والإعلام ثم درس وتدرب علي علم وفن العلاقات العامة بمصر علي مراحل متتابعة منذ ١٩٥٤ م .
- رأس تحرير مجلة العمل ثم مجلة الاذاعة والتلفزيون والمسرح في الستينيات .
- أعير لدولة اليمن خبيراً للعلاقات العامة بالبنك اليمني للأنشاء والتعمير ١٩٧٩م- ١٩٨٠م
- رأس تحرير جريدة صوت السودان عقب انتفاضة أبريل ١٩٨٥م .
- مؤلفاته : خمسة دواوين شعرية هي : حرية وجمال - من أرضنا - العراق وفلسطين والأمريكي القبيح - المربديات أزمان وألحان .
- ومن الكتب: اللغويات - السودان في القرية والمدينة - مملكة الجعليين الكبري - ذكريات الصراحة ثلاثة كتب بعنوان نماذج من التراث الاسلامي وكتاب محاضرات في علم وفن العلاقات العامة .
- ومن مواليد ١٩٢٧م قرية (قندتو) شندي .



دار عزة للنشر والتوزيع
الخرطوم - السودان
ناشرون وموزعون ووكلاء دور نشر